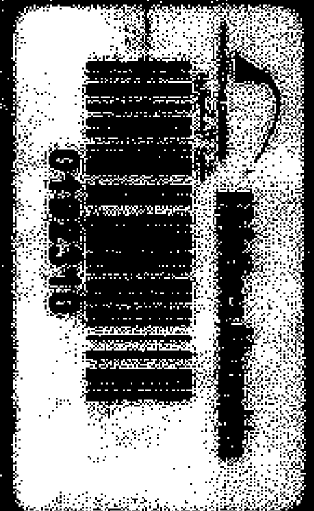
النيل فى الأدب الشعبى

د. نعمات أحمد فؤاد



٢١



الهيئة العامة
لقصور الثقافة

النيل فى الأدب الشعبى

تأليف
د. نعمات أحمد فؤاد

ديسمبر ١٩٩٧

* موتيفة الوسط
سمك ونخيل من
الرموز الشعبية
المستخدمة فى
الوشم المصرى
* تصميم الغلاف :
للفنان محمد بغدادى

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢
الهيئة المصرية العامة للكتاب

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالى

١٦ شارع أمين سامى القصر العينى - القاهرة رقم بريدى ١١٥٦١

المحتويات

هذا الكتاب

خيال النيل

الدكتورة **نعمات أحمد فؤاد** غنية عن التعريف. إنها كما نعلم جميعا من أبرز الوجوه في الثقافة العربية المعاصرة، صاحبة إسهامات بارزة ومهمة في البناء الثقافي، كما أنها صاحبة أسلوب جزل رصين معبأ بالمعاني والأفكار والمعلومات. ثم إنها تكتب من فيض علمي غزير وعميق، وتجربة ضخمة في القراءة والدرس والبحث والتجميع قلما توفرت لكاتبة من جيلها.

وهي من القلائل الذين دانت لهن أسرار الكتابة الأدبية فامتزج أدبها بعلمها، فأصبحت مقروءة على نطاق واسع، يجد القارىء عندها متعتين، التعلم والتأدب، إذا هو لابد أن يتعلم الكثير من عملها، ولابد أن يستمتع بحرارة أسلوبها وجماله ودقته وصفاء عباراته وطول نفسها ووضوح مقاصدها في غير ابتذال.

بهذه الإمكانية الكبيرة صار لها إسهامات كثيرة في القضايا الثقافية والسياسية والاجتماعية، ناهيك عن جهودها العلمية. ذلك

أنها لنور في بصيرتها وإتساع في قلبها استطاعت أن تخاطب جميع الأفهام على اختلاف مستوياتها الفكرية والثقافية. وأن يفيد منها كل من قرأها، سواء عبر الصحيفة اليومية أو عبر كتبها الكثيرة.

من أبرز أعمالها العلمية كتابها عن الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازني؛ ذلك الكتاب الذى كان فى أصله رسالة للدكتوراه، قبل أن تعيد صياغته لكيَ تتسع رقعة قرائه - وهذا الكتاب يعتبر من أهم المراجع العلمية لمن يريد دراسة المازنى. ولاشك أنها بذلت فيه جهدا خارقا حتى استطاعت أن تلم بكل جوانب هذه الشخصية الغنية الفذة المتشعبة، كروائي وشاعر وناقد ومترجم وكاتب مقال صحفي، وكرائد من رواد التنوير والتأسيس لثقافة حداثية تربت في مدارسها الأجيال.

ولا أظن أن كتابها عن أم كلثوم يمكن أن يُنسى، وصحيح أنه لم يطبع مرة ثانية، وغير موجود في المكتبات، إلا أنه موجود في ضمائر كل من قرأوه إبان صدوره. لقد كان كتابا رائدا، ولعله أول توثيق لحياة وفن أم كلثوم

أما كتابها عن نهر النيل فإنه عمدة، حاولت فيه الدكتورة نعمات أن تكون مثل النيل فى فيضانه وجريانه في أحشاء البلاد إنه في الحق كتاب فذ، درست فيه نهر النيل باعتباره كائنا

إنسانيا عملاقا وأسطوريا، وكيف أنه داخلى فى كل شئ في مصر، ليس فحسب كساق للأرض منبتٍ للزرع، وبل وكعلاقة إنسانية حميمة تربط بينه وبين الناس، فلقد دخل النيل فى الأغنيات، الشعبية والأمثال والمأثورات والحواديت وفى كل ما يتصل بالوجدان المصرى .

ومن هذا السفْر الكبير إقتطعت الدكتورة نعمات هذا الجزء الحيوى النابض الثرى، ليكون موضوعا قائما بذاته: النيل فى الفولكلور والأدب الشعبى وهو بالفعل موضوع شديد الأهمية. وصحيح أنه متصل بما قبله وما بعده من فصول الكتاب الكبير، إلا أنه مع ذلك يحتفظ باستقلاليته الموضوعية بحيث يمكن أن يكون، كتابا وحده. وذلك ما تتميز به الكتب التراثية العربية القديمة التى تتلمذت عليها الدكتورة نعمات، فالكتاب الكبير فى التراث العربى رغم وحدته الموضوعية ونسيجه المتصل ينقسم داخليا إلى مجموعة من الكتب الفرعية المتآزرة المتكاملة المتضافرة وقراءة كل كتاب على حدة لا يخلخل بنيانه ولا ينتقص منه، إنما يصيب القارىء - فحسب بالرغبة فى الإستزادة، فيلجأ إلى الكتاب الكبير، وإن شاء اكتفى بما قرأ.

وإذ نعتز بتقديم هذا الكتاب فى هذه السلسلة نتمنى أن نكون قد أسهمنا فى إطلاع القارئ على جانب مهم وخطير من جوانب

ملحمة النيل، ملحمة الخضرة والنماء والإرواء ملحمة الخيال الأسطورى الواقعى الخصيب. فإذا كانت مصر فى رأى المؤرخ اليونانى القديم هيرودوت هى هبة النيل فإن الوجدان المصرى بجميع تجلياته لابد أن يكون كذلك.

خيرى شلبى

مقدمة

نحن نعيش اليوم في قصة السد العالى، وهى قصة كبيرة وخطيرة معا؛ قصة ليس من أغراضها التسلية أو الخدر اللذيذ، ولكنها حلم شعب وأمنية أمة؛ ونقطة تحول في تاريخنا تصلح أن تكون بداية ونهاية في وقت واحد. والتفاصيل كثيرة لا أريد أن آتى عليها ولكن ما أريد أن أقوله هو أن قصة السد العالى بأحداثها ووقائعها هى إحدى قصص النيل.. وهى ركيزة لقصص كثير مستقبل عند ما يفي السد بوعوده الصناعية والحضارية.. كان النيل بالأمس الزارع الأكبر فلم يشغله الرى والسقيا وتنضير الضفاف والحياة فيها عن نسج القصص وإطلاق الأمثال وإيحاء الأغاني والمواويل مما يحتشد هذا البحث للوفاء به. وهذه الألوان من الفنون الشعبية والنيلية ليست هى الأخرى للتسلية أو السمر الخالى المتخفف من الأعباء، إنها أيامنا على النهر وقصتنا معه ورأينا فيه وتصورنا له وإحساسنا به.. فيها خيال نعم؛ وفيها شطط أحيانا، وفيها حقائق كثيرة وفيها تهاويل غير قليلة.. نعم إنها لكذلك، ولكنها فيها أيضا

أنفسنا بشمائلها وأحلامها وأمانيها ومشاعرها .. فيها آلام وآمال قد تختفى فى مطاوى اللفظ وقد تستعلن حين يبين ولكنها بجميعها رصيد يستأهل الحرص عليه وهو فى ظروفنا الحاضرة بأحداثها ومسئولياتها وأهدافها ومفاهيمها الجديدة وقيمها التى استحدثتها ظروفنا الخاصة والمحيطة أحق بحرص، وأجدر بإعزاز... إننا لكى نحقق وجودنا فى الزحام العالمى يجب أن نفتش عن أنفسنا أولا ونكتشف طاقاتنا وقدراتنا و... نعرف مزايانا ونقف على عيوبنا أيضا وليس كالفن مقياس لسير هذا كله فهو المرآة التى تبدى الصورة فى غير زيف أو تمويه.

وهذا السد العالى بما يتيحه من التحكم فى النيل والسيطرة عليه يلقى فى روع بعض الناس أنه سيأتى على سحر النيل فيزايله الغموض والروع والقلق والخوف والرجاء فى الزيادة والنقصان على السواء والعلم دائما عندما يقول كلمته ترهف له الأسماع وتعنو الرءوس.. ولكن العلم هذا ـ على جلال له وروعة ـ لا يمكن أن يغنى النفس الإنسانية عن الفن بحلاه ورؤاه ولا يمكن أن يستبد بها دونه مهما بهرها بمعجزاته أو راعتها منه آيات. لقد تغيرت الدنيا كثيرا بعد الفراعنة ونمت علومها واستحصدت ولكن أساطيرهم استطاعت وسط هذه كله أن تنفذ

إلينا بل أن تعمل عملها فينا وما زلنا نردد بعضها بصورته أو بصورة أخرى فإن لم نردده صدرنا عنه في تصرفاتنا اليومية بوعى منا أو بغير وعى.. وقد يقف كثير من معتقداتهم وتصوراتهم وراء تشاؤمنا من شىء أو تفاؤلنا بآخر دون أن ندرى. فالفن بألوانه باق أبدا لا ينصل ولا يتغير ولا يحول ولهذا أحسب أن القصص الذى دار حول النيل الزارع سوف يجد سامعيه فى ظل النيل الصانع. لن ينسخ هيبة النيل من نفس الفلاح شىء ولن يبطل سحره عنده.. سيظل يردده فى الأغانى والأسمار على النحو الذى نطالعه فى هذا البحث ما دامت مصر هى مصر والنيل هو النيل.

د. نعمات أحمد فؤاد

قصة نهر

نهر النيل له فى نفس الشعب المصرى مكان غال وله فى أدب هذا الشعب وفنه صور ملونة وأصداء بعيدة... الشعب المصرى على مسار التاريخ كله لا يومنا الحاضر. ومن حق قارىء موضوع (النيل فى الأدب الشعبى) ومن واجب كاتبه أن يلمح امتداداته البعيدة ورواسبه الأولى فى مصر الفرعونية ومصر المسيحية ومصر الإسلامية على حد سواء.. ماذا كانت الرؤية المصرية فى كل مرحلة من هذه المراحل وكيف التقت النفس المصرية - فى كل عصر - بالنيل وانعكاسات هذا القاء الحميم على الأدب المصرى والفن المصرى والتفكير المصرى بل الحياة المصرية بأسرها...

لقد صنع النيل تاريخ مصر وشيد حضارتها وخلع على أرضها ألوان السحر من خصبه فعرفت الجمال واهتدت إلى الفن بما قبست من ألوانه فى التصوير وسجلت أنغامه فى الموسيقى وصاغت آلاءه فى الشعر وسبحت بنعمائه فى القصيد ورتلت باسمه الأناشيد.

لقد ملأ دنيانا قدامى ومحدثين حين فتحنا عيوننا عليه فرأيناه رقراقا من الفضة المذابة؛ ووجدناه ذهبا براقا منثورا فى حقولنا قمحا وشعيرا وفيوضا أخرى.. وعرفناه منعما يحيى الأنفس والثمرات.

لقد بلغ من إيمان قدمائنا به وفرط حبهم له أنهم كانوا يحنطون من يغرق فيه ويدفنونه مكفنا بالزهور اعزازا له كأنما غرقه فيه ارتفع به فوق الإنسان.

وعز عليهم أن يفارقوا النيل مع الروح إذا جاء أجلهم فصورت لهم الأماني أن فى العالم الآخر نيلا مثله.. بالتمام.

إن الموت فى رأيهم ليس إلا نقلة إلى حياة أخرى ينعمون فيها بكل ما منحهم النيل من آلاء ووسائل.. ورسخت هذه العقيدة فى نفوسهم فراحوا ينقشون على جدران مقابرهم صور العيش فى واديه من مناظر الزرع والحصاد والصيد والمنازه والزهور والطعوم والعطور وكل ما تفنن النيل فى خلقه يوم زين لهم ولنا.. مصر.. حتى الصحراء التى ترامى على جانبى واديه؛ رسموها، لتكتمل لهم صورة مصر عروس النيل.. بل لقد بلغ من أثره فيهم وسلطانه السحرى عليهم أن زعموا أنه يبعث الموتى..! لقد رأوه يُحْيي الموت من الأرض ويبعث النبات من التربة فلم لا يحييهم أيضا من العدم؟

وكان النيل مسرحا لأعيادهم يمتزجون به على ظهر كل ذات شراع تتهادى على أواذيه الفضية، ويذوب خريره في نغمات الناى الذى يبعث فيه عازفوهم شجى النغم.

ودانت مصر بالمسيحية واعتنقت الإسلام ولكن ظل إجلال المصريين للنيل وظهر فى وصفهم إياه مسيحيين ومسلمين (بالمبارك).

إن العرب حين رأوه لم يلبثوا أن تصوروه نابعا من الجنة.. وأى جنة؟ جنة طرقاتها، بما يحفها من جبال وأشجار من ذهب وفضة؟ هكذا صورت لهم أخيلتهم وأوهامهم.. أليست هذه الطرقات تفضى إلى منبع النيل؟

حقا لقد هالهم أمره.

وخيل إليهم فى نشوة أخرى أن النيل ينحدر إلى الدنيا من تحت سدرة المنتهى أو من تحت صخرة بيت المقدس.

وحسبوه حينا رقبة ساحر تشفى عليها العلات.

وتصور آخرون واديه موطنا للسعادة حتى كان لم يكن به موضع لشقى؛ بل نصح أحدهم بأن يخلط غرينه بالرمل لما هالهم من خصبه الموفور.

وكتب جغرافى فى القرن الثامن عشر: ألا ما أحق تربة مصر بأن تخلط بالرمل والا جاوزت حد الغنى إلى درجة تخصب معها

الأناث حتى لتلد الشاة مرتين فى العام وتنجب النساء فى الغالب توائم...»

لقد اختلف الناس زمنا طويلا فى منبعه.. من أين ينبع وظلوا من أمره فى بلبال حتى أعلن (Grant Speke) إلى الدنيا المتشوقة سره ومع ذلك لم يتخلوا عن كثير من مظاهر إجلالهم له؛ واعتقادهم فيه ولهم فى هذا رواسب شتى.

ففلاحونا يرون الطين المالق بمائه نعمة تقتنى، وشرابا يحتسى ؛ ومنفعة تبتغى؛ فكل ماء حسن كالنيل الذى يأتى منه.

يفيض فتفيض حيويتهم معه.. ويهتز نباته على ضفافه فتهتز جسومهم وقلوبهم بهزته فيتزوجون، ويصحون ولو بالايحاء.. وتتجه إليه الأمهات المصريات فى الريف كما يتجهن إلى طبيب لا يخيب له دواء كيف وقد لقنا صغارا أغرارا أنه اكسير الحياة.. يحملن مخلصات فلذات أكبادهن إليه ليلقوا فيه ما تسره إليهم الوالدات تبركا به وتيمناً بإقباله الدائم أملا فى أن يشفى من الأكباد الساعية إليه؛ المريض، ويبرىء المعتل، ويسمن النحيف؛ وهكذا إذا تغلغل الحب فى القلب تحول إلى عقيدة تتجمع حولها مع الزمن الخرافات...

وإذا احتضر الفلاح ينسى الدنيا بما جمعت وينسى فيها دنياه الخاصة بما وعت. وينسى معه أهله كل ذلك فى غمرة

الأسى عليه.. ولكنهم جميعا يذكرون النيل فيأتون لمريضهم المشفى (جرعة أخيرة من الماء الحى).

وإذا احتضر الفلاح ينسى الدنيا بما جمعت وينسى فيها دنياه الخاصة بما وعت، وينسى معه أهله كل ذلك في غمرة الأسى عليه.. ولكنهم جميعا يذكرون النيل فيأتون لمريضهم المشفى (جرعة أخيرة من الماء الحى).

وتحس الفلاحة آلام الوضع فلا تقعدها الآلام عن السعى إلى النيل لتنال قبضة من الحمأ وتبتلعها أثناء الولادة؛ لتهنأ بوضع سعيد.

وفضل الشعر يلقى فيه ليقبل مع موجه؛ بهذا؛ في رأيهم يطول ويغزر...

ووليدنا يجمعون له من غلاته سبعة حبوب في كيس يعلق على ثوبه من أثر تيمنهم به وكأنهم يحصنون حياته الجديدة بالخصب والخير من بركة النيل.

وفى الصلاة يتجه إلى الله إخوان لنا في كنائسهم يرددون في خشوع ذلك الدعاء:

(تكرم يارب وبارك مياه النهر في هذه السنة وأجعله بفضلك يصل إلى الارتفاع الموافق ومتع وجه الأرض بأن تكون حقولها مروية وغلاتها متضاعفة...)

سأل الكاتب الألماني لودفيج؛ فلاحا عما إذا كان يعتقد أن الانجليز يكيدون لمصر فيحبسون عنها ماء النيل؛ فأجاب الرجل الطيب في ابتسامة مشيرا إلى السماء: (عبثا يحاولون أن يسلبونا النيل، لقد وهبنا الله النهر يجري حتى يبلغ حقل الفقير فيرويه منه)...

لم يملك الرجل أن هتف مؤمنا:

(ما من إله غير الله إلا أن الفلاحين يؤمنون بإله آخر يقرر سخطه أو رضاه في أعالي افريقيا ما يكون عليه المحصول المصري من القلة أو الوفرة....)

ولم يتردد أن يجعله في أديان الشرق دينا رابعا مقتبسا من الحياة موجها لها، منشئا لقيمها...

من هذا نرى أن النيل في الأدب الشعبي ليس موضوعا محدود الزمان لأن الشعب القائل شعب قديم معرق في القدم.. وسنرى أن الأدب النيلي أدب أخضر كالضفاف التي نشأ فيها؛ عزيز كالنهر الذي نبع منه؛ نابض كحب القلب المصري للنيل...

الفصل الأول

النيل فى الأغانى الشعبية

الأدب الشعبى من الألفاظ الواسعة الكبيرة. لأنه عوالم شتى فيه الأغنية والموال و (الفزورة) والمثل والقصة.. إن شعبنا طروب يهيم بالغناء وأعذب ما يكون غناؤه على شاطيء النهر، وفي مسارح الحقول. حتى ليغالى ماسبرو بأغانى الشادوف والساقية ذات النغم الرتيب؛ بل يراها لا تقل روعة على بساطتها عما تعزفه الفرق الموسيقية المدربة من ألحان..

وقد كان النيل وراء الفنان الشعبي حين يغنى وحين يقص وحين يطلق المثل من واقع تجربته، بل حتى حين يتسلى (بالفوازير)...

وديني لامى	*وديني لامى*
البحر مليان	*لجروفه*
وكل ما توه	*وظروفه*
واللى أجوز	*بكرة تشوفه*

وديني...

وأرق ما يكون الشوق إذا بعثه من النيل نسيم ندى:

واد يا جمال حوش حمالك عنى؛

دلال عــابث، أو يتنادى بالعبث...

مـسكـيوز بالـخيـر   ياللى غلبت أمسيكـو

ياللى الهوى والطياب   جـاى من نـواحيكـم

واد يا جمال.....

ولا تكف الأغنية أو المغنية عن الرفيف الرقيق:

مـسيكـو بالخيـر   يا فلـه على فلـة

يا أعـز الأحـبـاب   واحنا إيه جرى منـه

واد ياجمال

إن كان غيرنا حلـى   وأحـنا اللى مـررنـا

اللـه يسـهل لـكـم   واحـنـا يـصبـرنـا

واد ياجمال

حتى مع الجحود لا تسلو ولكن ترجو الصبر...

وهناك منظر غريب سجله الأدب الشعبى على لسان سيدة مصيرة هى:

الست حنيفة مرات البيه زاهر

اللى أحسن م الفضة والجواهر

ولية أميرة وما عونها طاهر

لما جت من مصر قالت ليه غية

اقعد فى السراية اللى ع الباجورية

عشان أشوف المراكب اللى فايته والمعدية

وهية ست مهش موجودة ولا فى المنوفية

جالها الحاج حسن أبو عبية

وقال لها أما أشور عليكى شورة يا ولية

أما أقول لك وطاوعى قولى

نفرين يزرعوا الأرض وأعمل عليهم خولى

قال لها كلها أيام وتفوت

يلا نعجل بقى ونكتب الشروط

حسن خد البهايم ورمح رمح

وقام بدرى وخضر القمح

القمح طلع وصيته لف الأقاليم

وخد التقاوى وراح بدر البرسيم

إخضرت الأرض وبقت مليحة

وساقها حسن من مية الطريحة

عزق منها قردتين على سكتنا

قام حسن ونطل عليهم بالصفيحة

ومما جمعه ماسبرو من مصر العليا هذه الأغنية التى تغنى للعروس فى حفل زفافها:

شلباية البحر ياليلة الدخلة عجبتينى

مدى دلالك على الأبحار عدينى

عديت دلالى على الأبحار عديتك

لو كان خشيمى قليلة كنت زجيتك

لو كان حد يدى رغيف كنت غديتك

لو كان صباعى سجارة كنت كيفتك

بعينى رأيت السمك بيصلى

فروجنا يخرط بصلى ويتجلى

وحمامنا يرمى محارم تلى

ياريس الوابور ياعثملى

حل القلوع خللى الخواجة يدللى

وبعينى رأيت عريسنا نزل من غرفته

عمال يحدث فى الأميرة عمته

صدر العروسة كم عجب ياللى

وفي مجموعة ما سبرو أغنية دافئة رقيقة حنانة تقولها العروس فى وقدة الشوق (والعريس) مسافر:

ياالقصر دا ما أطلعه	كان حبيبى فيه
يا الفل دا ما اقطفه	بياض جبينه فيه
يا الورد دا ما اقطعه	حَمَار خدوده فيه
يا البحر دا ما اشربه	سافر حبيبى فيه

إنه النيل.. إننا في مصر العليا... وهنا أيضا قرينة (الشرب)

والقمح دا ما انفضه والطين ما انقيه

يا أمي اعملي لي سلوك ذهب أغربل لحبيبي فيه

والنيل في الأدب الشعبي دائما يسمى البحر حتى ولو كان موضوع قولهم ترعة من ترعه أو مجرى من مجاريه..

وهناك موال يقول:

الجسم لو مال وصابه المرض بيخس

سفاين البحر بيجي لها يوم وتغيب

ومن غنائنا له في الصعيد ابان الفيضان:

ياشايله البلاص دلي اسقيني

ياحاردة القُصَّة على الجبين لويلي

سلامة الحمرة من المباع

سلامة الحمرة طويلة الباع لويلي لويلي

يدعون للبقرة تمنح لهم الماء من النيل.. لقد غدوا من اعزازه يحبون الوسيلة إليه حيوانا أو جمادا...

حول الميا يا حوال

مية الحمره بحر تيار لويلي لويلي

يا شمس غيبي يا مراكب حلي

بلدي بعيدة وطالب محلي لويلي لويلي

وقد ذكر علي (باشا) مبارك عند سنة ٩٢٢ هـ أن النيل وفى أوانه في شهر جمادى الآخرة يوم الأثنين الحادي والعشرين الموافق للسابع والعشرين من أبيب وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس وأربعين وثمانمائة لم يروا النيل وفى أبيب إلا في تلك السنة في السابع والعشرين منه فصنف المنادون على البحر (ياحبيبى أغنى وطيب النيل وفى في أبيب وقد بقينا في هنا يا فرحنا) وكلمات أخرى غير هذه...

وهناك أغنية تعرفها دروب القاهرة:

وحل جبر الخاطر عوف الله وجبر الخواطر علي الله عوف الله

دا شيء من السنة للسنة عوف الله وتعيشوا إلى كل عام عوف الله

يا صحاب الثنا الأبيض عوف الله الثنا ولا الغنى عوف الله

والجنة مقام الكرام عوف الله والنار مقام البخيل عوف الله

والنيل السعيد له فرحة عوف الله وكل عام يجينا خاطر عوف الله

نخلى له الأرض ليسكن عوف الله ومجينه به يسر الخاطر عوف الله

منه أكلنا والمشروب عوف الله ومنه الطعام الفاخر عوف الله

ومنه وسيع الرحمة عوف الله وتجرى الزيارة في النيل عوف الله

وتنشرح قلوب الأمة عوف الله والكريم يحب الكريم عوف الله

وله قصر في الجنة عجب عوف الله وعمدانه جواهر أيتام عوف الله

والرطب إذا جنى عوف الله لا يشبه لصيص البلح عوف الله

ولـه ألـف طاقــة تنفـتـح عــوف الله في كل طاقــة ســبـيل عــوف الـلـه
والجنة مـقـام الكرام عـوف الله والنار مـقـام البـخـيل عـوف الـلـه
ولمـا جـرى على الحـزاين عـوف الله يوم وفـا المـا دوره عــوف الله
قعدوا الجميع في جمعية عوف الله على مين يروح وينظرهم عوف الـلـه
ويجـيب الأغـا والوالي عـوف الـلـه ويطبق على مو ضـعهم عـوف الـلـه
وينادي على مين يحـزن عوف الـلـه وينادي على اللي يحـزن عوف الله
ويرن الـفـلا للعـبـاد عـوف الله يارب الـسـمـا زيد النيل عــوف الـله
واهدنا إلى طرق الرشاد عو ف الله

النيل له قصر في الجنة عجب، عمده من جواهر لا نظير لها؛ وله ألف طاقة تنفتح وفي كل طاقة سبيل ولم لا ؟.. إن الجنة مقام الكرام وليس أكرم من النيل ولا أندى ولا أوفى في واقعهم المادى والنفسي على السواء.

والقصر بأوصافة يذكرنا بالأساطير الإسلامية عن النيل... كقصة عيقام وقصة حايد بن سالوم.

ويقول ادوارد وليم لين :

«ويعلن ارتفاع النيل في شوارع العاصمة يوميا، ابتداء من السابع والعشرين من بئونة (الثالث من يولية) أو ما يقرب من ذلك. وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة؛ فيختص كل منهم بقسم من أقسام القاهرة.

ويجول منادى النيل على العموم فى قسمه مبكرة فى الصباح وقد يتـأخـر؛ ويصـحبـه ولد؛ ويعلن المنادى فى اليوم السـابق مـباشـرة على بدء إعلان ارتفـاع النيل اليومى أن الله لطيف بالأراضى؛ أو اليوم يوم الأنباء الطيبة؛ وغدا البشرى بالخير...

يبـدأ المنادى بالصـلاة على النبى؛ أو يبـدأ بقـوله: «يا من تدبيره عظيم» فيجيب الصبى: «مولاى مالى غيرك» ثم يأخذان فى التسبيح بحمد الله إلى أن يقول المنادى: والله يؤمننى على سر فلان (ذاكرا اسم رب الدار.. يا كـريم يا الله) » ويجـيب الصبى: (اى إن شـاء الله) الخ.. ثم يذكـر اخـوة درب الدار.. وأبناءه؛ وبناته العذارى؛ ويقـول أخيـرا: «يفـيض عليـهم بخـيره العميم، كما فاض النيل على البلاد، يا كريم يا لله» الصبى: (أى إن شاء الله) ـ المنادى «خمسة أو ستة قراريط ألخ» اليوم، والرب كريم» ـ الصبى: «صلوا على محمد». وتضـاف الجملة الأخيرة خوفا من أن تؤثر رغبة حقود أو نظرة الجملة الأخيرة خوفا من أن تؤثر رغبة حقود أن نظرة حسود فى ارتفـاع النيل فيزول هذا الأثر إذا صلى الحقود على الرسول.

و (قبل فـتح الخليج بيـومـين) يقـول المنادى والصـبيـان المرافقون له براياتهم مبشرين الناس بهذا القول: المنادى: (البحر فاض وزاد) ـ الصبيان (أوفا الله) ـ المنادى: (بى شىء

من السنة للسنة) ـ الصبيان: (أوفا الله) ـ المنادى: (وتعيشوا إلى كل عام) وغير هذا من مثل (والكريم يجب الكريم) (وله قصر فى الجنة عجب). (وعمدانه جواهر أيتام). (والرطب إذا جنى). (لا يشبه لصيص البلح). (وله ألف طاقة تنفتح). (وفى كل طاقة سبيل).

حتى حداء الأبل لا يبعد عن النيل:

هجرتنى يا زين وطال البحر

حرمتنى نوم العشا والفجر

ومن غناء العرب:

وإن هبهب الريح قلت لمركبى سيرى

وأنا أصبر صبر الخشب تحت المناشير

ناديت يا طير يا طير بحق السما العالى

تلم شملى وتجمعنى على الغالى

* * *

نحن قصدناك يارب الكريم تجود

نحن قصدناك لا قربة ولا زود

عتيق مثل البحر له شيمة وله برامات

خراج ولد العرب الترك والبيهات

وفى المنيا تغنى الأخت لأخيها العريس:

دخل يتمايل كما عود الريحان

والباشا بنفسه وبعت له السلام

وبعت له البدلة وعليها النيشان

والبسها ياخويا عبال التمام

وعروستك حلوة وزانها الكردان

البحر زفة زفة العرسان

ياما فيها أخويا أى عود الزان

واذا لم يقولوا «البحر» قالوا «النيل؟» وفيها كفاء وغناء ولكن الأدب الشعبى لا يعترف أبدا بلفظة النهر فهى لم ترد فيه..

زرعت بستان من أحسن زهور وريحان

وبدرت تقاويه على النيل العظيم وريحان

وبنيت عليه سور بوابة سعيد وريحان

وكل عاشق أتي تحت الشجر والعود

والزهر جميل الموعود يا بخته

والعتر هبت روايحه وتمايل العود

أخف شيء القُرنفُل حلو يا بخته

والتمر حنا من الجنة معانا العود

صاح الكروان على الياسمين أنا قلت يابخته

لما نشف واترمى أنا قلت يا بخته

أصبح يذم العويل زرع الجميل وواحا
وينسى اسمه اللى كان عالى ع الجميع وواحا
أنا قلت بلا هرج كلام من الكلام وواحا
الورد مهما وطا يعلى عن الريحان

***

يا زارع السنط سنطك غربله وانجيه
السنط منه منافع لما الجرض خليه
وإن عبت يا سوس فى خشب البندقة والزان
وأبو دقيقة انتفخ جاى يقتل التعبان
روصيك يا حلو دا الجارب اللى اتخرق اوعاك
تعدى فيه
لو كان حيطانه ذهب والموج بيرقع فيه
كل أنا ما فرد قلوعى ع السفر تنحل
تهب نار المحبة اتركن للبر

.. إن العيب ليس عيب القارب، أو الموج... كما يبدو.. ولكنها تعلّات حتى يبقى حيث يقيم الحبيب

.. على البر.. قريبا من النيل..

وهناك حبيب آخر على البر...

بالرحة يمد (الشاعر) الصوت فى لفظة الاستهلال (بالراحة) طويلا.. بالراحة

دنا فى باطنى جرح جوا الجوف

بالراحة (أى برح بى)

وحسبت عجلى خرج وياه

بالراحة (أى بروحى)

وهبهب عليا المريسى من الجهتين

بالراحة (أى بالريح)

وصبحت كيف زرع هفه الشوب

والمينا (أى المن)

وجعدت سنة حول لازادن

ولا مينا (أى ولا ماء)

ياهلترا مركبى ترسيش على

المينا

وأمد رجلى واطول البر

بالراحة

حتى الغزال فى عذوبته وسحره ينبع من النيل وكأنه غزل فيه..

ياللى القمر طـلعـتك	آى وانتا نور عينى
ياللـى أنا الـورد وانته	المـاء بتسـقـينى
وإن غبت دبلـــتتنـــى	وأن جبت بتحـيينى
ياليل الله	

السقيا والذبول والاحياء والغياب والمجيء... ألفاظ كلها من عالم النيل كالماء..

ومن أغانى الملاحين:

بلدى حصاد عينينا	*ما اجدرش أعدى لها*
أجوم م النوم وأجول	*يارب عدلها*
بلدى حصاد عينينا	*مش جادر أعدى لها*

هل البلد هنا .. الحبيب.. الذى يعز عليه الوصول إليه وهو الريس البحار الماهر؟ لعله كذلك فهو بعد هذا يقول:

طول عمرى ريس ع البحار
آتجلى على الموج وأسافر مع التيار
جابلونى ثلاثة أبكار
الأولى جمر، والثانية هلال
والثالثة هجت فيه النار

ومن المواليا المشهورة:

يا زارعين الود هو الود سجره جل
ولا سواجى الوداد نزحت ولا ماها جل
أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل
وأيام ننام ع الفراش وأيام ننام فى الظل
وأيام حكمت على ولد الظنايا تندل

والموال هنا يذهب خياله مع الماء والرى والسقيا

وفي سعيي وراء أغاني الملاحين في أقصى الصعيد حصلت في مديرية أسوان على أغنية ألفاظها نوبية ولكن معانيها في بدائيتها وبساطتها وطبيعتها وصدقها أيضا تتسق مع الجو العام لهذا الفصل خاصة، وترجمتها العربية:

أيها الفيضان الهائل..اجلب الخير

واحمل لنا الطمى الجديد

أعدوا القوارب إلى الجزيرة

سنبذر فيها الحب

جدِّف وحاذر.. جدِّف بقوة..

فالفيضان شديد.. وماؤه ثقيل..

أيها البحر.. أتريد عروسك عروس البحر؟

لماذا تسبب الاضطراب لمركبنا؟

سنبذر في الجزيرة ونعود

لنأكل الفطير باللبن والسمن

أسرع وجدف لا تغضب الفتاة

إني لا أحتمل غضب الحسناء

إنها تحمل لي الرطب الجني

ونجلس في الظل لنتسامر

والأغنية بألفاظها النوبية:

تسى بجبوج اجرسكا انارى

Tessi Bogbeag Agreska Ettarae

أرك ميريج كاجنتانى

Arki Mirig Kagintani

سقزكا كأين جبيق أون

Sigirka Kalan Gueyeg Aawan

آرتج فجو نانجرونى

Artig Feju Nangiron

ار واوى وأوركا

Orra Wawae Wawirka

تسن أمن جتران واينجى

Tossin Amun Gittiran Wayngue

نجد لى فرجى وو واوى

Nogodakka Lei Firgi Wea Welwelle

الم سجر ونجاح تملكى

Illim Sigirroigag Temalke

ارتج نانجا جو فكيرى

aArtig Nangega Ju Fakirae

كابتا سوجون نويجونج كبرى

Kabitta Sougon Noygonnog Kavrea

شتمنجر اتونس سمر كنانى

Shouttimengir Ottoonus Simarkinani

سمر كندى تنجا اى اسكنينى

Simarkandi Tanga I AEskumunnaini

اكريحرنجا كاجدينانى

Okkarigonga Kagadeinadeinani

أتيل فجو جاجرونى

اللقاء على النيل:

وفى الأدب الشعبى (ظاهرة) تستوقف العين... وهى تعيينه اللقاء ... على النيل .. شاطئه أو ترعه أو الموارد: وليس هذا من قبيل المصادفة التى ينفيها الاجماع أو شبه الاجماع.

اذن الأمر مقصود ولم لا ؟ إن النيل أكبر مظاهر الطبيعة في مصر وهو حق مشاع للجميع وفيه متسع للجميع أيضا والخروج إليه متعة لا يتقاضى ثمنها أحد؛ ولما كان النهر ملتقى الحاجات فإن الأحبة يقصدونه وهم فى مأمن من الظنون أو هكذا يظنون؛ وإذا أصرت أعين الرقباء على تمييزهم من بين قصاد النهر الكبير فالتعلات فى رحابه كثيرة يسيرة سنلمس طرفا منها بعد قليل.

عجبي على حليوة في المركب معدية
طلبت منه الوصال جال دا انتا بلدية
جلت لو أنا بلديك وجبض أبوك مية
جال ان كان كلام جد روح لابويا العشية
أطلب منه الوصال واديهم له حمر نجدية
وأنا أفرجك ع الخوخ والتفاح والباجي عنبية
ان كنت نصراني ويهودي أسلمك علي نية

وهنا يلوح الحبيب على صفحة النهر في (المركب معدية)...

الزين على المعادي

لابس قميص أبيض وفي يده عاجي

لويلي يا لويلي

ومما جمعه «ماسبرو» من أغاني الصعيد تلك الأغنية مما تغنيه (العروسة للعريس) ورده عليها.

طلت لي من الترعة وزمامها دنجر يرعا
ياستي عندي قرعة وصفوكي دوا ليه

ع البحر جمالات بيملو في دوارجهم
عليل وعطشان وصفولي دوارجهم
جالوا جلبي لزغروطه أباريجهم

جـــالوا منين الفـــتى .. أنا جلت منيـــاوى

مــولود مـــعـــاهم ومـــوش جـــادر أفـــارجـــهم

يؤرخ الشاعر فى هذا الموال لبدء غرامه، بأنه حدث عند ما كان يصطاد بطا على شاطئ النهر؟:

واجف علـى الشط باصطـاد ونا عــــايم

صـادنــى غـزال زين خـدوده حــمــر ونعــايم

من أصل عـــالى فى خـــيـــر ونعـــايم

وكـــيف أطوله ومـــا بينى وبينه بعـــيـــد

جنبى غـــرج فى هـواه يا با وناعـــايم

وهذا شاعر آخر يسأل عينه متى تنام ويزورها الحبيب فى الحلم؟ .. ويقول إنه نزل إلى المرسى على الشاطئ، حيث يعبر الجميل النهر، فلم يجده. ولا وجد سفنه.

تنام يا عـين ويجـيك الحـبـيب مسعـاديه

أنا نزلت فى الصـبح بدرى مـا التـجـيت مسعـاديه

أنا نزلت فى الصبح بدرى كان أوان صيف

من عشرة الأنذال يا جلبى لم بجالى كيف

آه ياللى يجيب لى حبيبى ساعة يكون لى حظ وكيف

واللى يحـجـزه عنى لاجطع جثتـه بالسـيف

كما يحلو اللقاء على الموردة:

على الموارد ... وخلي وارد
شجر الجنة ... على جدولنه
جلدك يا غزال ... وفي المسية شال
وتشكي دراعي ... من شيل المي
يا بوسينا بيل ... يا بحر النيل
فرعون بناك ... ومشي وخلاك
يا حوال المي ... جردها شوى
زرعتنا الجنة ... على جدولنا
ميه دلوى ... طلعت تدوى
يا عنب العناب ... يا أخضر عناب
يا زرع رقية ... يا طالب المية

ألا تروع اللفتة هنا؟ ان الفنان الشعبي مملوء النفس بالنيل لا يبعد عن خياله إذا تغزل أو وصف ولو بعد الموضوع .. العاشق وهو في شغل (بالخل الوارد) أمامه يتحول إلى النيل يلهج به ويشيد:

يابوسيابيل ... يا بحر النيل
فرعون بناك ... ومشي وخلاك

إن النيل هنا بسيابيله يدخرلطافًا وطيوبا وطرفا .. يحمل مني وآمالا .. يحمل ماذا ؟ .. غموض جميل يسرح فيه الأمل مع الخيال ... إن النيل هنا كالأب العائد من السفر رؤيته حبيبة وعودته خصيبة وأحماله ملأى بالألطاف والنفائس ...

وهذا التصوير للنهر يؤكد العلائق القوية التى بين هذا

الشعب وبين النيل فهذا الغناء ليس خيال شاعر وهو بالطبع ليس تجريد عالم ولكنه أحساس عميق بالنهر .. وإن بدا ظاهره ساذجا ..

المغني – على الموارد قابلوني

المرد – على الموارد قابلوني

المغني – قابلوني البيض يا عيوني

المرد – على الموارد قابلوني

المغني – خلو مشغيلي وهملوني

المرد – على الموارد قابلوني

المغني – هو ياليل هو يا حالي غريب ومروح

المرد – على الموارد قابلوني

المغني – بابكي وانوح غريب يا صبايا

المرد – على الموارد قابلوني

المغني – قلت لأمي جوزيني

المرد – على الموارد قابلوني

حتى العروس تختار ركبها «الموردة» لينتهي هناك.

ما عايمة ألا وترسي   وتيجي برها بالسلامة

مية وتلاتين كرسي   سجدت للحجازى سلامة

تو الزين اللي جاتنا   نشن يا بندقاني

على الموردة جدانا

ترى هل اختار الأدب الشعبى (النيل) وانعطافاته؛ من جداول ونهيرات، ملقى هوى لأنه يبعد الشكوك عن الحب. إذ المفروض أنه قبلة الجميع ... كل يسعى إليه. وفى حمى هذا المعنى يتوارى العاشقون ويسهل عليهم انتحال الأسباب.

أما فى مديرية المنيا فتغنى الفتاة لخطيبها:

بنى باسمك بنى

حبيت ما رأيت غصبين عنى

كمن جالوا عليه سجا

وسلاسل الجربة فضة

لا تحجج وأروح البركة

وأجول الحمام عطش منى

إن النيل مصدر كل شئ حى فى مصر ... إنه حياة للعاشق والمعشوق ... للناس ... للحيوان ... للنبات ... والسعى إليه طبعى لا يثير شبهة ولا يوجب لوما ولا يوقظ ريبة .. وهى خاصية تيسر اللقاء عنده .. إذ هو فى رحابه أضمن عاقبة وأسلم من خوف ... ولعل فى غناء الفتاة إلى خطيبها مصداقا لما نقول ... إن التواجد على شاطئ النيل له تعلات كثيرة ليس آخرها ظمأ الحمام ...

وظاهرة اللقاء على النيل نجدها فى أدب مصر القديمة فقد

أثِرَ عن الأدب المصرى القديم هذه الأغنية التى يتحدث فيها الرجل عن حبه:

(سأرتقى صفحة النيل ومعى حزمة من الغاب أحملها على كاهلى.. سأذهب الليلة .. فالنهر خمر؛ بتاح غابة، وسوخمت لوتسه، وأيارت براعمه، ونفرتم زهوره ...

أنظر إلى الفجر وممفيس تبدو (كاناء مترع بالفاكهة وضع أمام بتاح الاله ذي الوجه الحسن.,)

وهذا يدل على أن الظاهرة قديمة غير مستحدثة؛ طبيعية غير متكلفة أوحتها طبيعة الإقليم وطبيعة أهله معا.

الفصل الثانى

لوازم النيل وزروعه في الأغانى الشعبية

والأدب الشعبي غَنَّى في وادي النيل للساقية والشادوف والمحراث والنورج.. غَنَّى لفوله.. غَنَّى لقطنه... غنى لفاكهته.
فمن أغاني الساقية.

يا ساقية دوري ورشي من بعيد
وازجي حيضان الملوخية وحوض الجنزبيل
استعجبت ناس البحيرة والصعيد
على الولد دا اللي بنا له بيت جديد
يا ساقية دوري ورشي من وره
واسقي حيضان الملوخية وحوض الكُسبرة
واستعجبت ناس البحيرة ودندرة
على الولد دا اللي بناله مندرة
يا ساقية يا أم داره
وردم عليكي العدارة
والعجل قال قال دوروني
للزين كحيل العيوني
وإن جال عفش ما تدوروني
وارخوا على الستارة

وفى المنيا يغنون للمطاهر :

يا ساجية دورى دورى ولفى من ورى
واسقى اللمام واسجى حيضان الكظبرة
واسجى ولدى اللى فى حنكة السكره
واسجى أبوه واللى عليه المشورة
واسجى أمه أم الشعور مضفرة

ومما جمعه ماسبرو:

يا ساقية دورى يمين وشمال

واسقى العنب والخوخ والرمان

يا لويلى يا لولها يا لويلى

يا ورق الريحان مالك دابلى

والعين سوده والحواجب سابلى

يا لويلى يا لويلى

ومن غناء العريس فى أيام الفرح:

عايج ويجنى الورد فى منديله

العمر وهبه يا كريم تدى له

على جبين المجلع شفت طاقية

فيها جميع الخضار حتى الملوخية

على جبين المجلع شفت طاقية

فيها سواقى الهوا تنعر بلامية

وسجل لجران أغنية عن الساقية ... كما سجل عنها لبرت أغنية أخرى ومن أغاني المحراث:

بنات بحرى يلعبوا بالجريدى

يا محلى الدق الأخضر فى البنات البيض

ولا تنهروهم فى العصور الماشى

حتى المراكب طالبة المراسى

أنا الغريب والغريب دليلى

يا شايلة الجلة تعالى اسجينى

يا شايلة البلاص تعالى اسجينى

يا حاردة الجصة على الجبينى

لقانى الزين على المعادى

لابس جميص أبيض وفيده عاجى

يا شمس غيبى يا مراكب حلى

أنا غريب وغايتى فى محلى

وشدادى وشدادى

ونلم الغلال من جميع البلاد

ومن أغانى الشادوف:

يابيض يامــلاح	شـبـابكـم راح
بنتك ياديـــاب	شـتـتت الأحـبـاب

صعيب علي — فراق الحي
ياغراب البين — وديتهم فين ؟
يابور النار — روح نار
كواني البين — وع الجتنبين
جميد القوم — لم يهناله نوم
خاطري أشوف — محنى الكفوف
سبوني سب — من غير سبب
يابو عيون نعاس — بليت الناس

أما أغاني الزراعة فهي كثيرة. فمن أغاني القطن:

عطاشا والمية بلاش — عطاشا عطاشا
والسقا راح يملا ما جاش — عطاشا عطاشا

والأغنية تكنى بالعطش هنا عن ظمأ القلب.. فبعد هذا تقول:

غيطنا ياما فيه — يا حلاوتنا
غطينا فيه اللوز — والصبايا جوز
واللي مالوش لوز — مايجيش ناحيتنا

ومن أغاني جمع القطن أيضا:

خولينا راح يملا القلة
أشطر وملاها مال
خوليهم راح يملا القلة
أدالج وخده التيار

ومن أغاني الفول:

نوار الفول شغل بالي

شبكتني عينية وأنا كان مالي

ياحمام مالك بتنوح

وأنا عارفة هواك واقدر أنوح

وأنا كنت ع السطح امبارح

شفت المحبوب وهو سارح

ياهناية عليه والنبي هارس

خد عقلي معاه وأنا كان مالي

ياحمام مالك بترجم

وأنا عارفة هواك واقدر اترجم

لاقف قصادك واتحرجم

وبعدها وياك وأنا كان مالي

جليع الفول:

ارحل يافول دار الجليع

ارحل يافول والزرع غزير

ارحل يافول اضبط بالباط

ارحل يافول والزرع أهو طاب

ارحل يافول ارحل رحيل

ارحل يافول والزرع دا زين

ارحل ياديب ارحل ياديب

ارحل ياديب من وسط الفول

ارحل يا ديب يا أبو الهداديب

ارحل ياديب الفول يجعلوه جريب

ومن أغانى الزراعة هذا الموال:

يا اللى اشتريت الرخيص دور على الغالى

الدنيا فيها كل شيء والحلو تمنه فيه

تلاقية مخبى مافيش مخلوق ييجى يمه

عفوف مربى وعود العز دمه فيه

لما الوحش فى السكك كل العدا يمه

القرع الخسع من مسجره ما فيش تقاوى فيه

عجل فيه واقطعه ترتاح من يمه

والزروع فى أرض مالهاش أصل بطاله

ومن غناء الأفراح المستوحاة من البيئة الزراعية:

يامين يجيب لى حبيبى على الجصور عندى

ياكل من التمر ويتجلب على الهندى

يامين يجيب لى حبيبى على الجسور يرتاح

ياكل من التمر ويتجلب على التفاح

ومن غناء الأم الذى فى مرحلة الزواج:

دخـــل الجنـــينـــة كل الشـــجـــر غناله

ضـــحك الشـــجـــر وتمـــايلت عـــمـــدانه

دخـــل الجـــنـــينـــة كــل الشـجر له غنه

ومما جمعه «Bourianr» هذين الدورين:

أصل الحكاية جا أوان البطيخ

لما ظهر وملا جميع الأقطار

وجا عليه النيل وبلغ رشده

واخضر مداده وزاد فى النوار

وربعت منه الخلايق تمه

برلسى ماله نظير ياحضار

لما فرغ راح المخازن كله

كان البلح الأحمر نزل على القبان

فى الحال أتى واحد وخدله جنبه

فرش بما جوا البلد فى دكان

***

يا إلهى أرض اصلاحى شراقى

ما يكون الحال وأنا خايف الفضايح

لا نزرع خير ولا قدمت تقوا

وانقلب فدان صلاحى بالقبايح

كل ما أقلب فى سواقى العدل وازرع

يتحصد قلبى يزويدنى جرايم

والفلاحة فتها وادى المسامح

ان باب عقول لعصيانى رحمنى

حسن ظنى

***

وقد جمع ليجران فى القسم الثانى من كتابه:

(Louqsor Sans les Pharaons) ١٢ أغنية سمعها فى يوم من أيام العمل. منها واحدة عن الثور والظلم الواقع عليه. وواحد عن الأرض وأغنية عن الشادوف وأغنية عن الساقية

كما جمع من أغانى الحصاد:

أغنية (المنجل)

وأغنية (الحقل الصغير)

وأغنية (الشمس الغاربة)

وأغنية (الفول)

وأغنية (الحصاد)

وأغنية (النورج)

***

سمك النيل فى الأغانى الشعبية:

وقد غنى الأدب الشعبى لسمك النيل أيضا...

فمما جمعه ماسبروا من غناء للمطاهر:

سمين يابورى سمين   واللى عان محمد مين
ومحمد قاعد فى وكبه   ودا خسيه على اليمين
سمين يا بورى مشرح   يا نوا القلب المجرح
ومحمد سارح ومروح   يشرح القلب الحزين
سمين يا بورى سمين   يانوا للوحمبانين
سمين يا بورى وشلبه   يا اطلس من جوا عليه
المطاهر نازل فى الزفة   ومحفض بالصالحين

ومن أغانى (السمك)

صيد العصارى   يا سمك بنى
واضرب ياقارح   فى البحر المالح
صيادك فالح   واصطادك منى
واضرب ياخوجة   فى البحر أبو موجة
صيادك موضة   وبده يجننى
صيد العصارى   يا سمك بنى

***

القلل فى الأغانى الشعبية:

حتى القلل ملأى من النيل غنى لها الأدب الشعبى.. فمما يغنى للعروس:

يا بنت يا مبنته ياعشقة هللول

تحت من قصتك طرح العنب بللول

يا بت يامبنته ياعشقة القاضى

تحت من قصتك قلل وبرادى

ومما يغنى العاشق:

فايت على دربكم ومعاى سمك بورى

واتنهشونى البنات وجسعت من طولى

وجللكم بارده بخم ورشونى

وجللنا حامية والزير مهجور

والساقية مبطلة

والعجل ما يدور

مسيك بالخير يا جنى على جنى

يا أعز الأحباب واش كان جرى منى

إذاكان غيرنا حلى وفض أنا منى

الله يهنيك بهم وأنا يعاونى

وفى غناء الحجاج فى العودة:

زغرطط له القلة وهى ملانة
نشربك يا قلة نهار السلامة
زغرطط له القلة وهى جديدة
نشربك يا قلة من مصر السعيدة

***

النيل فى (مواويل) الشكوى:

من يوم ما عدو الغلابة مع المساكين عدونى
فى سفينة الزهر مع الاجرام عدونى
عاشرت ناس اتعبوا جلبى وعادونى
جال يعوض الله فى شجانا وتعبنا
والصاحب اللى تحبه ما راح فى كروم وتعبنا

الجناس هنا عماد النظم والنغم..

زمان الدلع راح ما جانا زمان جادرين
جلب الأسود انهرى كيف الفول فى الجادرين
والسمنة غليت حتى حوج الزيت لم جادرين
وادى نسوان الأكابر لابسين الحبر
ماشيين على البر حتى اجار الجطر لم لاجيين

هنا منظران متناقضان... واحد، يرفل فى خير النيل ويمشى على شاطئه وفاقد لا يملك قيراطا من أرضه حتى ولا إيجار قيراط..

والله لو (وصفنى) [1] زمانى لاعد فى الغليون
وأوسجه صبايا وخلى مجدمه موزون
بعد الحبيب عن حبيبه صبحه مجنون
عاشج يجول الحمام ادينى جناحك يوم
علشان أشوف حبيبى فى السنة يوم
ولا بجعد ارتاح ولا بنعس يجسينى نوم
والزاد مرد علي ولم عينى شافت النوم
احنا سمعنا كلام من اللى جبلنا جالوا
نار الخشب تنطفى ونار المحبة دوم

وهناك (موال) لا يكتفى عن النيل بالمعدية ولكن يلهج به هو... النيل.

بلد الحبايب بعيسده نوحى ياعين
يا مين يجيب لى حبيبى وياخد من عيونى عين
وياخد النص راخر ويكفانى بقية العين
النيل هدف جرف وأنا دمعى هدف جرفين
قسما وبالله وصوم العمر يلزمنى
ما فوت حبيبى ولو اعدم بقية العين

وإذا كان ماسبرو قد لاحظ أن أغاني الشادوف والساقية خليط متباين من الموسيقى بحيث تستقل كل شطرة بمعنى ـ

---

(١) أرجح أن تكون اللفظة (نصفنى) ولكنى أثبتها كما هى.

غير ما قبلها وما بعدها - وأحيانا يحدث أن تكون ثلاث شطرات أو أربع مقتبسة من أغنية معروفة فتؤلف معا معنى متكاملا.. مثل:

دوبنى دوب حرير التوب هوب يا هوب
تبكى عيونى على اللى جفونى هوب يا هوب
سرير النوم هجرنى اليوم هوب يا هوب
سائل على الباب برايا أحباب هوب يا هوب

وهذه الملاحظة التى أخذتها عين ماسبرو على أغانى الشادوف والساقية ترجع فيما يبدو إلى الدوافع التى ساقتها والجو الذى أنشدت فيه فحارث الأرض وساقى الزرع يقوم بعمل مضن يهونه عليه كثيرا الغناء.. وهو يعرف هذا فتراه يرفع عقيرته به كيفما اتفق لا يعنيه معنى متكامل أو موضوعية؛ أو صورة متناسقة... هذة كلها مستويات ليست من عمله فهو لا يخلق الفن ولكنه يتلقاه؛ وهى مستويات لا تدخل فى إهتماماته أيضا، إنه يريد أن يسرى عن نفسه فحسب.

وكذلك أغانى الزروع ولوازم الزراعة الأخرى فإننا نرى الأغنية تجمع أكثر من موضوع كما تتنوع الزراعات فى الأرض الواحدة وكما تتنوع الآلات فى يد الزارع، فالذى يغنى للقطن يلمح القلة والتيار والخولى، والذى يغنى للفول يلمح الحمام

والمحبوب، مجرد تسلية أو تصوير سريع (على الطبيعة) لما حولهم؛ تصوير ليس من ورائه واقع نفسى عميق يستمد منه شأن المحب مثلا أو المظلوم الشاكى.

وغير هذا يغنى هواه أو يبث شكواه فهو لا ترضيه اللمحات الخاطفة من هنا وهناك. إنه يريد أن ينفس عن نفسه طويلا فى أغنية طويلة أو موال متكامل بحيث يحس بالراحة النفسية... ولهذا نرى أغانى الحب والشكوى متصلة موضوعية.

وكذلك كل موضوع وراءه رصيد نفسى أو تجربة ذاتية فأغانى الحج متصلة لأن وراءها شحنة من الذكريات والمشاهد والمشاعر.. مشاعر الرضا والإيمان والوصول.

والمراثى تتسم بالموضوعية لأن الجريح يتركز انتباهه وينحصر تفكيره فى جرحه.. الفقدان ألم كبير يحجب كثيرا من الرؤى والمشاعر التى تختلف طبيعتها عن طبيعته. فالذى يرثى عزيزا عليه يلم عادة بمعانى الحرمان والفقد والألم وحكمة الحياة والموت وما يتصل بهذا من معان وتأملات. وهو بطبيعة جوه الكابى بعيد عن الألوان الزاهية من الحياة والمعانى وهو فى أحيان كثيرة تصرفه حرمة الألم عنها صرفا ولعله يتعمد عدم التغنى بها أو التحدث فيها.

أما أغانى الملاحين فهى من الأغانى التى تتسم بالموضوعية

أيضا، فالملاح عالمه متشابه. زرقة في السماء وزرقة في الماء، لون واحد يستمد منه، فلا غرابة أن تخرج الأغنية وحدة. إن الملاح شبه معزول عما في الدنيا من عوالم وأشياء فأنى للأغنية أن تتنوع وتجمع ألوانا مختلفة. إن الزارع يرى حوله من الزروع والنباتات والخيرات أشكالا وألوانا. وهذه الوفرة تكسبه احساسا بالغنى النفسي حتى ولو كان معدما لا يملك من قوت يومه الا الكفاف أو النطاف. إنه دائما تتردد على لسانه العبارة الريفية التقليدية (الخير كتير) وقد سجلت أغاني الزراعة هذه الوفرة في الألوان والأنواع إلى حد كبير حين اقتصرت أغاني الملاحين على الابحار، وقرب الشاطيء أو بعده؛ وبعض الحب وهو لون الشعور مشترك بين الأناسي وإن كان عند الملاحين لا يبعد عن البحر أو الشاطيء بالحبيب عادة يتهادى في مركب أو يعيش في بلدته على الشاطئ الآخر وهنا يفتعل الملاح الحرمان...

بلدى حصاد عينينا

ما جادرش أعدى لها

وهذا العجوز الذى لا مبرر له، يصرح به حتى ولو كان (ريسا على البحار).. إنه يكتفي بدعاء متواكل متقاعس.. يارب عدلها. كأن الله الذى تكفل بخلقه؛ كفيل أيضا بالمطالب التافهة.

***

وإذا كان ماسبرو قد سجل هذه الملاحظة على أغانى الساقية والشادوف فإن Theresa C. Brakeloy قد لاحظ بدوره أن أغانى الشكوى يدور معظمها حول شظف العيش الذى يكابده أصحابها وحالاتهم وقسوة من هم أعلى منهم. فأغانى الحصاد وأغانى اللبن عند نساء الأغريق والأمم الأخرى العريقة فى المدينة، تدور حول الأشخاص الذين أوقعهم سوء حظهم فى مصائرهم.

وإذا كان العمل خفيفا ولكنه متصل بدون لحظات معينة يصل فيها المجهود أوجه يمكن أن تستعمل مجموعة مختلفة من الألحان بطيئة حزينة، حرة رتيبة أو فرحة لأن غرض الأغنية أن يسلى العامل.. ومن هذا النوع بكائيات النساء وأغانى الشكوى وأغانى الرعاة وسائر الذين يتفردون فى أعمالهم...

ويمضى الكاتب فيبين ملاءمة اللحن لنوع العمل:

(وتساوق صورة اللحن فى أغانى العمل - إلى حد كبير، طبيعة العمل الذى يصاحبه؛ وتتجلى التقسيمات الواسعة للألحان بوضوح فى أغانى البحر. فإذا تطلب العمل طرقا ثقيلا أو جذبا، خاصة عندما يستدعى الأمر تكتيل جهود الجماعة لصالح شيء فوق طاقة الفرد فهنا يجب أن تغنى الألفاظ واضحة بطيئة ولكن قوية النغمة يترجم الضغط فيها على كل

مقطع سير المجهود المبذول).

ويلاحظ أن الوضوح والبطء والقوة طابع الأغاني التي غناها الأدب الشعبي للنيل وزروعه وصور العيش فيه.. وإذا تقصينا الألفاظ التي صغت منها الأغاني التي مرت بنا في هذا الفصل نلاحظ أن كثيرا منها يقوم على حروف المد (الألف والواو والياء) التي تعين المغني أو الشاعر على مد الصوت فيها وترجيعه....

العود. موعود. تسقيني. تحييني

لو يلي.. مالي. جرى مني. رشوني

عدوني.

الفصل الثالث

غناء وبكاء وصور شتى

ويلمح النيل؛ ركب الحجيج فهو في مدائح الرسول مظهر اعجاز وكرامة:

الطول على رجال لا صاموا ولا صلوا

نصبوا خيامهم على أعلى الموج ما أنبلوا

وفى أول الليل يقروا الورد ويعلوا

وف آخر الليل فى حرم المصطفى صلوا

ومما جمعه ما سبرو:

صلاة النبي:

المـــرد - صـلـى عـلـى الـنـبـى صـلـى

المـغنى - يامـصـر مـا إنك بعـيـدة

المـــرد - صـلـى عـلـى الـنـبـى صـلـى

المـــغنى - حل القلوع الجـديدة

***

والنيل فى أغانى الحجاج صورة محبوبة:

مـا فـردت قلوعـهـا	مـركب المـصـطفى
مـا فـردت قلوعـهـا	يانـهـار الهـنـا
نهـار رجـوعـهـا	بعـد زيارة النبـى
ما فـردت قلوعهـا	مـركب المصطفـى
مـا فـردت صـاريهـا	يا نـهـار الهـنـا
نـهـار مـجـيـهـا	سليـمـا تسلمـى

النيل فى المراثى الشعبية:

وإذا كنا قد تواضعنا على أن الرثاء تعداد محاسن الراحلين؛ فإن النيل في البكائيات كان ركوبه من أمارات العز والهيبة:

اعـــرف رجـــالى علـى المـــعـــدية

راكـــبـــين كـــحـــايل وأشناب ملوية

وليلة عـــدمـــهم شـــمت العـــدو فـــيـــه

ومما جمعه ماسبرو:

وأجول عليك يا فلج من نخله

والله رجيل وصاحب النخوة

وأجول عليك يافلج من جميزة

والله رجيل وصاحب الهيبة

أبوى العزيز أوعى تكون نايم

عدى البحر وتعالى لهم عايم

هنا عبور (البحر) مظهر قدرة..

وعند افتقاد الرجل تنشج الباكيات:

لمى رجالك وانزلى روى

كثرة الرجل ياخيبة تقوى

يا مزارع يا بو تلات زرعات

زرعتين نبارى والتالتة مقات

وهذه دمعة على امرأة متوفية:

عينى عليها بين غواسلها

لبست البحر والموت قاليها

عينى عليك بين غواسلكى

لبستى البحر والموت قالبكى

عينى عليها بين حبايبها

لبست البحر والموج جالبها

وحين تبكى الأم ابنتها، تقول:

جصرها كله جناين والسواجى دايره

ولا تسلبوا طول الأميرة والأميرة نايمة

وحين تبكى البنت الصعيدية أمها تنشج:

مــــركب الفــــرجــــة وها جــــاية

حــالة الجلوع ياما شــارخــه المــيــة

يامــــركــب الفــــرجــنــة وها جــــايين

حــــالة الجلوع ياما شــــارخــه النيل

وفى رثاء قتيل:

ياحشيش الغيط خــبـــرنا عنـــه

خبرنــا الزغلــول والطير والعصفــور

ومحمد الغــــدور غرقــان فـى دمـه

ومن قاموس النيل لفظ (غرقان)....

والغريق بيكونه:

بحر الدميره جروف فوق جروف

ولا قلب حسنه يطلع الملهوف

بحر الدميره رمال فوق رمال

ولا قلب حسنه يطلع الغرقان

ولو أننا حاولنا - من كل مامر بنا - استقصاء الصور التى رسمها الأدب الشعبى» للنيل، وعبر بها عن علاقته به من ناحية المنفعة أو الجمال لوجدنا أنه في نظر الفنان الشعبى منظر غنى (البحر مليان لجروفه) يهب منه نسيم عليل (الطياب) وهو مجلى للنظر حين تتهادى فوقه المراكب؛ وهى صورة تلوح كثيرا وفى أوضاع مختلفة فى الأدب الشعبى، فمرة تنشر كل مركب الشراع كما تفرد الحمامة البيضاء جناحا. ومرة يحل (الريس) أى ملاح النيل (القلوع). ومرة السفن تغيب فيه ومرة تقبل والشمس تتأهب للمغيب وهناك قارب مثقوب والموج يلطمه. ومفارق (كل ما يفرد قلوعه ع السفر تنحل تهب نار المحبة يتركن للبر). وهو دائما مركب سفر للحبيب.

والنيل فى الأدب الشعبى حياة الأرض، فإذا سقاها اخضرت واهتزت وربت «وبقت مليحة» حتى سمكه عجيب (بيصلى) وبه

تشبه الغيد الكواعب (شلباية البحر ياليلة الدخلة عجبتينى).

ويضم الأدب الشعبى كثيرا من الصور النيلية. فهذا حوال يحول الماء. والنيل.. لونه أحمر وهو جياش هادر بالتيار كشأنه فى (أبيب ابان الفيضان.. وفيضانه زائر محبوب (له فرحة) حين يأتى (خاطر) تخلى له الأرض ليسكن؛ ومجيئه يسر الخاطر وهو كريم يعطى (الطعام الفاخر) وهو حين يهل يتنادون بينهم بالفرح والتبريك وهناك صورة المنادى وفتاة إذ يقول المنادى: خمسة قراريط والرب كريم فيرد الفتى «صلوا على محمد» معوذا النيل بالنبى وآله...

وصورة أخرى لهذا المنادى ووراءه جمع مع الصبيان يرفعون الرايات مبشرين الناس بفيضان النيل.. يقول المنادى (البحر فاض وزاد) والصبيان من ورائه يصيحون (عوف الله).

والنيل صاحب أفراحهم فهو يزف (العريس) وزفة العريس، فى الريف أكبر معالم الفرح.

البحر زفة زفة العرسان
يا ما فيها أخويا زى عود الزان

وشاطىء النيل مسرح للبستين والخمائل حيث يلتقى الأحبة (تحت) الشجر والعود وأحيانا يكون الحبيب على شاطئه الآخر.

بلدى حصاد (عينيا)
ما جادرش أعدى لها

وآنا يلوح الحبيب على صفحته فى (المركب معدية) وآونة يطل منه (طلت لى من الترعة) وكثيرا ما تنتشر الحسان على شاطئه (جمالات بيملوا فى دوارجهم).

وعلى شاطىء النيل يجرى الصيد.. صيد البط، وصيد القلوب..

صور من الأحبة على شاطىء النيل.. حبيب يوافى، وحبيب يجافى؛ وحبيب (النيل هدف جرف وهو دمعه هدف جرفين).

وحتى العروس تعبر النيل (وتيجى بالسلامة) وأخرى تسعى إلى النيل لتلقى بصاحبها على شاطئه وأن تعللت بعطش الحمام...

والنيل له (سيابيل) والسيالة معناها الجيب الطويل والمراد ما يحمله النهر من ألطاف وهدايا وخير عميم.

وفى الأدب الشعبى صور جانبية من النيل.. صور للساقية والشادوف والمحراث والنورج.. صور للفول والقطن والفاكهة.. صور للجنى والحصاد..

وفى الأدب الشعبى صورة حاملة الجرة وحامل (القلة).

وفى الأدب الشعبى صورة مروعة للنيل (بحر الدميرة) وهو مطبق على الغريق قد غيبه فى أعماقه؛ كما يبتلع التيه، الضال فيه.. كلاهما فى نظر الأدب الشعبى (رمال فوق رمال).

ووراء هذه الصور دلالة كبيرة هي الاحساس الجماعي العميق بالنيل. إحساس يكاد يكون مستقصيا في شمول يستوعب اللون والحركة والأثر والأشخاص والأشياء.

وهذه الصورة تعكس آثاره من إيمان قديم للنيل فسمكه عجيب (بيصلي) وهو يبارك العروس وهو بعد هذا وثيق الصلة بالاسلام فمركب المصطفى تفرد قلوعها عليه فتذكرنا بمركب الإله آمون.

والنيل في الأدب الشعبي صورة متواكبة، سريعة الخطوط فردية حينا، جماعية حينا آخر: ساكنة آنا كصفحته في المساء، أحياناً تعج بالحركة وتزخر بالألوان

كصورة المنادي وصبيانه.. بل قد تشتد هذه الحركة وتعنف كصورة غريق بحر الدميرة.

وهي صور في ذاتها ولكنها عندي جزئيات في الصورة العامة للنهر وضفتيه تلك الصورة التي لم يسجلها الأدب الشعبي جملة واحدة لأن الفنان الشعبي كثير الاستطراد وسريعه أيضا . قد يلمح المنظر ثم ينتقل منه بسرعة وبدون مناسبة أحيانا إلى الشكوى أو العتاب وقد يعود إليه أو لا يعود... وهذه الفضفضة من أسبابها أن الفنان الشعبي يتكلم على سجيته والفن بعامة لا سيما صورته الشعبية لا ينهج منهج

العلم من دقة واستقصاء وتحليل.

ويعبر الفنان الشعبى فى صوره تعبيرا مباشرا فى بساطة وواقعية وصراحة فطرية لا تدارى تعلات الأحبة.. وقلما يلجأ الفنان الشعبى إلى صورة مركبة فى التعبير أو تشبيه معقد أو كناية بعيدة حتى لو أراد التفنن والتصوير.. فبحر الدميرة حين هاله أمره وهو يغيب ضحيته فى أعماقه، تمثله جبالا من الموج كالصحراء (رمال فوق رمال) وهى صورة ليس وراءها تعمل أو صناعة فقبلها قال:

بحر الدميرة جروف فوق جروف

ولا قلب حسنة يطلع الملهوف

والجروف المرتفع من الشاطىء وهو منظر مألوف ومتكرر.. والفنان الشعبى حين أردف هذا بقوله (بحر الدميرة رمال فوق رمال). فإنه يكون قد أتى بصورة قريبة جدا من واقع يلمسه.. موج فوقه موج ورمال فوق رمال..

صورتان متقاربتان فى الشكل بل فى اللون إذا راعينا أن التسمية (بحر الدميرة) تطلق على النيل وقت الفيضان وهو أحمر داكن.. فضلا على أن هناك رافدا يعين الفنان الشعبى على هذه المقارنة فهو يقرأ أو يسمع ويلمح قوله تعالى: (وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم.

وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح إبنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين).

وإن كان الفنان الشعبى يحتشد لفنه أحيانا فيستعمل الجناس والتورية قاصدا كقوله:

ع البحر جمالات بيملو فى دوارجهم

عليل وعطشان وصفولى دوارجهم

برج جلبى لزغروطة أباريجهم

جالوا مين الفتى؛ أنا جلت منياوى

ومولود معاهم موش جادر أفارجهم

وهكذا تم اللقاء والتعارف على البحر وصور الفنان الشعبى هذا كله فى فنية. ولكنه رغم تورياته غلبته بساطته؛ فأفصح عن غرضه وصرح بعنوانه، فهو لم يستطع التجمع وكتمان الهوى؛ كالعباس بن الأحنف من أجل ذر الرماد فى العيون وحماية الحبيب؛ كما لم يستطع أن يتخابث كالبهاء زهير القائل:

وأقول بعض الناس عنك كناية

خوف الوشاة وأنت كل الناس

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل وهى القاموس النيلى للفنان الشعبى. فتعبيراته يستمدها ويصوغها معا؛ أو أغلبها من هذه الألفاظ النيلية:

الطياب ـ المريسي ـ الريح ـ التيار ـ الموج.

المراكب ـ المعدية ـ القارب ـ القلوع ـ الصارى ـ عديني ـ الريس ـ السفر ـ السقاين ـ الغليون ـ البحر ـ ترسي ـ المينا ـ البر.

مية الطريحة ـ حوال المي ـ الموارد ـ الجدول ـ البركة ـ العطش ـ الشرب ـ اسقيني ـ البلل ـ الذبول ـ الأحياء ـ العوم ـ

الغرق ـ «شارخة في المية»..

جرف ـ شراقي ـ حيضان ـ الشط ـ صيد البط ـ سواقي ـ نزحت ـ شادوف ـ النورج ـ الدلو ـ السقا ـ البلاص ـ القلل ـ النبي ـ شلباية البحر.

هذا فضلا على الأرض ـ الغيط ـ الزروع ـ الفواكه ـ الغلال ـ الحصاد.

وهكذا فرض النهر نفسه على الأدب الشعبي.

وبعد. فهذا الحشد من الصور النيلية المبثوث في الغنائيات الشعبية بما تحمل من دلالات ومضامين؛ وراءه حشد آخر من صور يبدو بعضها أكثر تفصيلا، وأوفى مضمونا؛ وأعمق معنى، وأوسع دلالة، مما يستقل به وتعكسه القصة الشعبية والأمثال الشعبية وألوان التعبير الشعبية على اختلافها.

الفصل الرابع

النيل فى القصة والأمثال الشعبية

أما القصة فالنيل مسرح أبطالها.. إن حكاية «صندل مع ورد» تجعل الشاطر حسن البطل التقليدى للحكايات الشعبية يغذ السير حتى تدمى قدماه فيجلس تحت شجرة والشجرة تحتها نهر صغير أحمر بلون الدم؛ يصد الوارد عنه ثعبان فيقتل الثعبان وتصفو المياه وتشرب الطيور والناس..

ترى هل لمحت القصة أو الراوى النيل عند الفيضان بمياهه الحمراء من الغرين المجلوب؟.. وشىء آخر.. ألا يذكرنا هذا بما جاء في الأساطير المصرية من أن (أباتون) قد تمثله الكهنة جبلا به كهف غائر، يقر فيه أوزوريس على هيئة النيل ويحرسه ثعبان...

أرى فى حكاية (صندل مع ورد) ملامح من أسطورة الفيضان فى مصر القديمة أو قصة هلاك البشر؛ وقصة هلاك البشر دونت فى مواضع كثيرة وخاصة فى قبر سيتى الأول بجبانة طيبة. وهى غنية من طرافة ورمز وحيلة. فقد زعموا أن الاله رع وهو أبو الالهة أغضبه من البشرية جحودها فضله وعدم وفائها بما كان ينتظره من حقوق العبادة والتقدير... لهذا جمع مجلس بلاطه في السماء وأفضى إليهم برغبته فى إعدام البشر ومن قوله لهم: ابحثوا لى عن عينى أين هى: ... وعينه هنا ابنته

حتحور التى سمى باسمها الشهر المشهور «هاتور»...

فقالت الالهة بعد بحث للاله رع: إن ابنته حتحور بالنوبة فأمرهم أن يرسلوا إليها رسولا يأتى بها إليه.

ولما كان الآلهة يعلمون أن حتحور غاضبة، فقد هداهم التفكير إلى إيفاد الاله تحوت وهو رمز الحكمة والمعرفة والقدرة فى علم الله يكون فى وسعه التماس الحيلة، فى إحضارها؛ فذهب إليها على هيئة قرد وأحضرها... وكان الوقت وقت جفاف النيل فحنت حتحور وبكت فجرى النيل من دموعها وشاعت بجريه النضرة..

فلما صعدت إلى أبيها فى السماء ناداها: تعالى... فلبت طائعة... وطلب إليها إعدام البشرية العقوق... ولكن حتحور هى التى يرمز إليها بالبقرة الرءوم فما العمل إذن؟ لقد احتال على طبيعتها بأن جعل منها لبؤة ثائرة لا يشفيها الا الدماء...

وعز على الآلهة الأخرى فناء البشرية.. فأوحوا إلى البشر أن استعدوا وذلك بأن تطحنوا الشعير وتصنعوا منها جعة وتخلطوها بمادة حمراء كالدم.. وصبوا للبؤة هذا الشراب لتسكر فيخيل إليها أنها رويت من دماء.. ففعلوا وشربت حتحور إلى أن ثملت ونسيت مهمتها.. فلما صعدت إلى أبيها فطن وأدرك الأمر وعفا عن البشرية...

والقصة رمزية. فلا إرادة هلاك هناك، ولا بلاط في السماء. وإنما هو النيل تأخر على مصر فخافت الهلاك. ومجيء حتحور من السودان هو انحدار النهر العظيم من الجنوب....

ترى لماذا لم يعبروا بصورة أخرى؟ إنها طبيعة الإنسان يفزع إلى الله فى الخوف وعند الشدة...

وقد أوردت هذه القصة بأوهامها لأهميتها فى مجال بحثنا هذا . فقد ترسب عنها مع الزمن معتقدات شعبية إن لم تكن انتجت أدبا بالفعل فهى خليقة بطرافتها وغناها الأسطورى بأن توحى إلى القصاص الشعبى.. الكثير.. كما كان يعتقد قدماء المصريين أن جزيرة بيجه هى أول مكان وطأته حتحور وأن أوزوريس نائم عند منابع النيل هذه.. والنيل يجرى من بين ساقيه...

وأوزوريس فى مهجعه يمثل عندهم المنبع، والكهنة يقولون بحرمته؛ فلا يجوز طبل ولا زمر ولا يطؤه أحد والصيد حرام فيه.. وظلال هذا؛ الإمساك عن تعاطى الخمر فى الفترة قبل عيد القيامة.

ويقال إن حتحور اغتسلت فى ذلك المكان عندما بكت.

والنيل عندهم له يوم فى السنة ينام فيه، والسعيد من حظى منه برشفة أثناء نومه ففيها روح من قوة؛ ونفحة من حياة؛ ولمحة

من جبروت.. والشقى من دنا من النيل ساعة يقظته.. إنه عندئذ يطويه...

وكما كان قدماء المصريين يعتقدون هذا؛ نرى فى الصعيد المصريين المحدثين يقولون فلان يمسح الريال بفركة من أصابعه.. وتسألهم كيف؟ فيقولون عن إيمان.. إنه قد مسه عرق الصبا؛ لاعتقادهم أنه فى ليلة القدر يقف الماء فى النيل لحظة ومن يشرب من النيل في هذه اللحظة يمسه عرق الصبا. وهو كما نرى - إمتداد لاعتقاد مصر القديمة فيه..

بل إننا سنرى صدى هذه القصة فى الأدب الحديث نفسه الذى اقترب من الشاطىء فى رواية (الأرض) للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى.

أما حكاية العبيدة فهى من البداية تجرى عند النهر فلا تبعد عنه إلا لتعود إليه كلما استحكمت العقدة.

وقد زوجت القصة الصياد من (العبيدة) وهذا شائع فى القصص المصرى الشعبى.

كما أن صورة الشبكة التى تكون سبب السعادة بما تحمله تذكرنا بقصة عبدالله البرى فى قصص ألف ليلة وليلة.

وقد عقد الفنان الشعبى العقدة؛ فى هذا القصة؛ أكثر من مرة وحلها عند النهر.. على الشاطئ.. إن البطل ما يكاد يقع فى

مأزق حتى يجد له عند النهر مخرجا.. نهر النيل.. فإن موطن القصة الصعيد.. والشعب فى مصر العليا خاصة لا يرى غير النيل ولا يقصد إذا غنى أو بكى أو قص غير النيل

وفى الصعيد أيضا إذا أقبل الليل ونصب السامر وتحلقت الندوة حول القاص وتداخل القوم بعضهم فى بعض ،أتلعت الأعناق لترى «الشاعر» وركزت العيون أشعتها على الربابة.. هناك يسرى فى السمع (حكاية غرام مطرب فى الريف) أو موال بحراوى كما يسمونه لأن بطلته (نعيمة) من (بحرى) والموال يحسن بنا أن نثبته هنا.. لدلالات فيه شتى...

يا ناظم الفن اسمع فن ع النسوان

تلقاه عجيب فى الأدب والطعن فى النسوان

اعرف رجل جد ولا تسأل عن النسوان

فتّح ودانك قوى واسمع لهذا الدور

وانظر لحادثة عجيبة فى الصعيد قبلى

سببها كانت بنية والجمال فى الدور

كانت الفوانيس عليها كتير من قبلى

صوته كروان وينوح كتير فى الدور

تقول دا تركى لكن الأصل م المنيا

بلده بنى مزار تبقى جوار المنيا

اسم المغني حسن النمس بكماله

بينها وبين البلد خطوات معدودة

مكتوب لحسن المرار والصبر والحنضل

يا ما الزمان جار هلك جدعان معدودة

لو يعكس البخت تلقى الحلو بقى حنضل

حسن المغنى يغنى بالنغم من فوق

ويجيب كلام عال وخلايق كتير سمعاه

أتارى نعيمة بتنظر لحسن من فوق

سكن الغرام قلبها من حبها سمعاه

من كتر نار وجدها بكت كتير من فوق

الحظ زايد قوى فضل الفرح للصبح

ومن بعد ذلك حسن قعد وكسر الغاب

وخش فى البيت لشرب الشاى والراحة

ونعيمة هايجة قوى مثل السباع فى الغاب

كداب اللى تقول الحب فيه راحة

وتقول حبيبى القمر بعد ان ظهر ليه غاب

جلب لقلبى التعب امتى أشوف راحة

من بعد ذلك حسن سافر محلى بلده

عشان يريح فؤاده م الغرام تعبان

من حسن صوته تجى له ناس من بلده
ويسافروا وياه ولا أحد يقول تعبان
ونعيمه من حبها راحت على بلده
سألت على البيت وجت أمه قابلتها
قالت لها غريبة وجت لكم فى الدار
قالت لها مرحبا باللى يجينا الدار
خدتها بالحضن وأحسن حلم قابلتها
جابت لها الزاد واتغدوا سوا الاتنين
فى المدة دى حسن نايم ولا دارى
دارى على بلوتك ياللى انكويت دارى
ونعيمة وأمه بيرغوا فى الكلام الاتنين
فى المدة دية حسن نايم وروحه سارحه
وكان مشغول فى منامه رأى غزالة خايفة من الصياد
خلاها جنبه وكان مشغول ساعتها
وسأل عن اسمها ومنين ف ساعتها
قالت له على البلد والاسم نعيمة
عاوز ياخدها يوديها فى نص الليل
والسكة وحشة وبيجو اللصوص ياخدوها
أرض الصعيد فى خطر فيها الضرر بالليل

وتروح نعـــيـــمـــة وأهل الشـــر ياخــدوهـا
بيــقلعـوا الزارعـة ويهــينوا الرجــال بالليل
وتروح نعـــيـــمـــة وأهل الشـــر ياخـــدوهـا
خـــلاها عنده وبيـــتــهـــا فى عـــز مكان
ونام لوحـــده لأنه بالتـــقـــوى مـــعـــروف
فى ا لمـدة دية أهلهـا بحـثـوا فى كل مكان
وســـالوا رمـــال دا أصله فى البلد مـــعـروف
ضـرب لهم رمـال وقـال لهم بنتكم فى أمـان مـا تخـافـوا
وأذن الفـجر وأقـام صلاة ربه مسلم مزكى بماله
على الفـــقـــيـــر.. مـــعـــروف...
وخـــد نعـــيــمــــه وتوكل على جناب ربه
لقى أبوها وأخـوها مع بعـضـهم جـالسـين
من قـبل افـتتـاح الكلام ألقى عليـهم سلام ربه
رد أبوها وقـــال له شــاكــرين أفـــضـــالك
تجـــزى من الله على دى الفـــعل ياعـــاقل
هـى اللى راحت وصـــاتهـــا هناك أفـضـــالك
فـرد أخـوها وقــال له لا بد ف يوم أفـضى لك
فقـال لهم بنتكم فى الصـون واحنا ع العـمـوم شاكـرين
وادور على البـــاب وألقى عليـــهم ســـلام ربه

وقـــال لهم احنا للأمـــــام مـــاشــيــــين
البنت قـدعت ومـسكوا الناس فى سـيـرتهـا
عـايشـة مـعـهم لكن م العـين راميـينهـا
عـاوزين يزيحـوا المـعـارة والكلام عنهم
فـراحـوا جـابو حـسن فى البـيت قـدامـهـا
نعـيـمـة شـافت حـسن داخل مع اخـوتهـا
كـــان واحـــد ضـــربهـــا ظرف وخـوتهـا
لسـانهـا مـتـحـاش مش قـادرة على اخـوتهـا
حـسن طلع على السلم من ضـربة واحـدة نزلت
الراس على السلم زعقت نعيمة وقالت يا سلام
سلم الراس خدوها دفنوها فى قلب التبن
والجـثـة رخـره فى قلب البـحـر رامـيـينهـا
الجـــثـــة عــــامت وهـى راحت على بلده
ع الشـط ركـنـت وطـالبـــــه الدفـن فـى بلـده
الدق الأخـضـر بينطق على دراعه اليمين احسان
وبنت عـمـــه نازلة فى الصـبـــاح تمـلا
شـــافت الجـــثـــة مـــالت على دراعـــه
لقت دراعـــه بينطق فى الحـروف احــســـان
راحت خـبـرت فى البلد أم حـسن قـالت ابنى له

تلات أيام غـايب راحت على الجـثـة وبتـحـقق
عيونها عامت لكن الجثة بتحقق ما عرفتوش
لكن نهسودها باللبن حنت ياعـيـنى على ابنى
قــــــتل مــظـلـوم وهــو بــارى..
جت النياية أمرت للجثة بالدفن وضابط المباحث
لبس حرمه ع البحر متخفى وجد نعيمة على البحر
وهى تبكى سألها مالك حزينة ياللى معاكى لاخر
أنـــــا أبــــكــــى
قـالت لهـا روحى وسـيـبـينى أنا لا بابكى على
مـال ولا دنيـا أنا بابكى علـى انقـتل مظلوم
قالت لها إذا كنتى حبيتى أنا حبيت قبليكى
وإذا كنت عـاوزة مـسـاعـدة الروح جـيـاليكى
ضـابط المـبـاحث سـمـع أقـوال قـيـدها قـالت
أبويا وأخـويا جـابوه على السلم هناك قـتلوه
الراس خـدوها فى قلب التـبن دفنوها والجـثـة
لاخرى فى قلب البحـر رموها ضـابط المـبـاحث
جاب نعيمة بالحبل قيدها وهجم ع البيت بالقوة
بيفـتش، أخـوها وأبوها اتحطّم فى قلب السـجن
أخـوها ٢٥ سنة فى الأشـتـغال الشـاقـة وأبوها

١٥ سنة وابن عـمـهـا ١٠ سنوات كـسـروا
الحـديد والزلط مع بعض فى قلب السـجن
وحـرمـة تخـرب بلد وتعـيش وحـدها وتقـول
بمكرى على أحـسـن رجـال وأكـيـد
اسـمـع وسطر أقـوال يا غـاوى، كل البـلاوى
بتـجْـرَى من النسـوان...

وفيها نرى النيل واعيا جياش العاطفة.. فيه مروءة ووفاء... فهوَ حين تلقى جثة البطل لم يمض فى سيره غير مبال.. قاذفا بها إلى الشمال كما يقتضى التيار وإنما حملها أمانة فى عنقه إلى موطنها.. إلى المنيا فى الجنوب عكس التيار.. وسلمها إلى الشاطىء المقصود.. وهو صنيع يجب أن يتأنى البحث عنده طويلا؛ فإنه يعكس رواسب كثيرة قرت فى نفس هذا الشعب ومفهومه عن النيل.. رواسب من مصر القديمة حين كان النيل صاحب الأمر فيها. يهب مصر الخصب ويهبهم القوت والنعمة. يسعد أيامهم ويفرح أطفالهم ويوفر المؤن والقرابين لآلهتهم. رواسب من مصر القديمة حين كان النيل نفسه يعبد.. والمعبود دائما مسئول ومناط الرجاء.. وقد تجلت مسئولية النيل فى حمل جثة البطل عكس التيار وتسليمها إلى الشاطىء المقصود.

وهناك ظاهرة أخرى فقد جعلت القصة جثة البطل يلقى بها

غريمها في النيل وكان من الممكن أن يلقى بها في (جب) كما يحدث كثيرا في القصص الشعبي، أو في العراء أو حتى على الشاطئ ثم يدعها. ولكن القصة أسلمت الجثة للعباب نفسه لأنها تغالي بها فصاحبها فنان مرموق، فإيداعه في النيل ضمان بوصوله إلى بلدته وأهله لأن النيل يعرف كيف يصون الودائع ويردها إلى أهلها أو هكذا صورته القصة. ولأن الغرق في النيل كرامة للغريق وطهر فمن رواسب مصر القديمة أن أوزوريس قد أغرق في النيل ثم أصبح إلهًا للحياة مرة أخرى ومن ثم أصبح الغرقى في النيل في العصور المتأخرة يعتبرون شهداء مقدسين لأنهم لاقوا نفس المصير ومنهم من كانت تؤدى له طقوس العبادة.

وكان قدماء المصريين يحنطون من يغرق في النيل ويدفنونه مدثرا بالزهر من اعزاز.

وعندما زار مصر بعد الميلاد امبراطور الرومان هادريان وغرق، أثناء الرحلة؛ صفيه انطينوس؛ رأى (أن أقصى ما يؤدى من شرف لهذا الصبي المسكين هو أن يرفع إلى مصاف «شركاء آلهة مصر» وكان مثل هذا التأليه أمرا قريب الاحتمال وذلك لأن الغرقى في النيل كانوا يعتبرون من القديسين.)

فالقصة الشعبية لم تلق جثة (حسن) في النيل عبثا. ولكنها

أرادت تكريمه بأسلوب فيه من مصر القديمة انطباعات ورواسب استقرت في أعماقنا؛ وإن حجبتها اعتبارات كثيرة.

ثم استمرت المشاهد تجرى على شاطئه بعد هذا، ترده ابنة عم البطل لتملأ جرتها. وتتطاير إليه أم البطل ثم تجلس عنده الحبيبة تمزج دموعها بدموعه.. ولكن الدلالة الأولى في هذه القصة تتمثل عندى في حمل النهر الجثة إلى موطنها عكس تياره... إن الفنان الشعبى يجعله (صاحب الأمر) في كل شيء، فهو يرى ويسمع ويحكم ويكيف الأحداث ويضطلع في الوادى بمطالب الحياة والروح. فهو لا يقوت فحسب ولكنه أيضا يصل الغريب. ويرد الغريق.. يقرب البعيد.... ويزف العريس.. ويبارك المولود...

ومصر في تاريخها كله دائمة الخوف على النيل.. تخشى عليه بحبها كله الحدثان والإنسان والمطامع والحب العميق يلازمه الخوف والأوهام بل لعله من فرط حساسيته وعمقه يخلق لنفسه المخاوف والأوهام ثم يصدقها وهي حال شعورية جعلت أديبنا الشعبى المجهول ينفض خوفه أو خوفنا في قصة سيف بن ذى يزن. فيرسل النصيحة من عنده على لسان يثرب وزير الملك في هذه الصورة المنزعجة لهفة وحذرا...

(واعلم يا ملك الزمان أن هؤلاء الحبشة والسودان لابد أن

تنفذ فيهم دعوة نوح عليه السلام لأنه مجاب الدعوة بين الأنام ولاشك في ذلك وأنهم يخافون على مجرى النيل من نزوله إلى الأرض الوطيئة خوفا أن ينزل إلى مصر فهم جاعلوه على قدر أرضهم، وإذا فاض يجعلون له تصاريف فيها إلى الربع الخراب؛ وإنهم لا يعملون عملا إلا بإذن الحكماء وهذا هو الصحيح والأمر الرجيح).

إن أديبنا الشعبي حين تلقى السيرة في مصر ثم اشتهى أن يضيف إليها ويفرض عليها مصريته كان خاطر النيل أسرع خواطره فاندفع احساسه به مختلطا بالخوف عليه ممتزجا بعقيدته فيه ككل ذي نعمة يتوهم أنه محسود وأن وراءه من يبيده بليل. مع أن هذا الخوف (لم يكن له مبرر أثناء إنشاء السيرة) ولكنه لون من شعورنا بالنيل في ذلك العصر كشأننا في غيره من العصور.

إنها حالة شعورية ولدها في نفوسهم شدة احساسهم بالنيل وشدة تأثير حياتهم به في وقت كانت الزراعة في مصر هي كل شيء.. حقا إن هذه المخاوف وأشباهها تراودنا الآن نحن المصريين المحدثين بحكم تغلغل الاستعمار – وان بدا ظله يتقلص – وتقدم العلم وحلم المناطق البكر في حوض النيل بالتوسع الزراعي واستغلال المساحات الشاسعة العاطلة الآن

مما يستأدى أصحابها حجز الماء أو خزنه أو استغلاله على نطاق واسع مدبر مما يخشى منه - بحكم تعارض المصالح وتحكم الغرائز - المساس بمصالح مصر.. وهو سيف يلوح به كثيرا فى وجه مصر. ولعل السد العالى ضمان شعورى يقابل هذه المخاوف.

فمخاوفنا الحاضرة لها أساس من واقع تتصارع فيه القوى؛ ودعامة من علم تتوالى فيه الكشوف وتتوسع الامكانيات؛ وسابقة من تاريخ قريب طالما لوح الاستعمار - ولا يزال فى مناطق مجاورة - بالتحكم فى النيل.

أما فى وقت انشاء سيرة سيف بن ذى يزن فلم تكن مبرراتنا الحاضرة موجودة أو واضحة. لم يكن عصر علم واختراع وسبب ومسبب.. وحين يتواضع العلم وتنتفى السببية، يسود إيمان العجائز الذى مازالت بقاياه موجودة حتى عصرنا الحاضر. فكيف كان الحال وقت انشاء قصة سيف بن ذى يزن، ان الأمر لا يعدو عندى أن يكون حالة شعورية انتابتهم من فرط تعلقهم بالنهر إلى حد فيه الوساوس والأوهام ثم تتبلور ويسهل تصديقها .

ويحلو لخيال الراوى المصرى أن يقف بسيف بن ذى يزن عند صومعة فى الجبل يسكنها إنسان يرد على تحية الملك

اليمنى بقوله:

(... عليك السلام ورحمة الله وبركاته. وأهلا وسهلا بملك بلاد اليمن وغيرها من الامصار والدمن. الحاكم على هذه الأقطار وسائق النيل من بلاد الحبش إلى أراضى الأمصار).

***

وكتاب النيل هذا له قصة:

(قال الراوى).. وكان هذا الكتاب هو معبود أهل مدينة قيمر ولم يعرفوا لهم (معبودا) سواه، واعتقادهم أنه هو الذى يجلب لهم النيل ويجرى المياه ويزرعون زرعهم على الأرض والماء سقيه. فمن ذلك يعتقدون أن هذا هو المعبود عندهم وكلما يستهل الهلاك يدخلون عليه ويسجدون قدامه دون رب الأرباب الملك التواب الذى أنزل القطر من الغمام والسحاب وخلق آدم من تراب. وذلك الكتاب موضوع فى صندوق من خشب الأبنوس الأسود ومصفح عليه بصفائح الذهب الأحمر والصندوق موضوع فى تابوت من خشب الساج ومصفح بصفائح من فضة وموضوع عليه مقام عال من الخشب وعليه ستارة من الحرير الملون ومبنى عليه قبة محكمة من حجر الرخام الأبيض وبابها من الحديد الصينى. وأقفالها من الحديد والبولاد. ومفاتيح تلك الأقفال عند الملك قمرون لا يأمن عليها أحدا غيره ولا يفتح القبة

أحد سواه وكلما يستهل الهلال تحضر أكابر البلد جميعا والوزراء مع الأمراء والنواب والحجاب وكل من طرف فى المملكة فإنه يحضر ذلك اليوم مع الملك فيأتى الملك ويفتح باب القبة ويفتح بعده باب التابوت وبعده يطلع الصندوق ويفتحه وينظر إلى الكتاب ويسجد له ودون رب الأرباب فإذا فعل ذلك ورآه أرباب دولته سجد؛ يعلمون أنه سجد لذلك الكتاب، فيسجد أرباب الدولة جميعا اتباعا لسجود الملك. وكذلك الامراء والوزراء يسجدون. فتنظر الرعايا سجودهم فيسجدون جميعا تبعا لهم... هذا اعتقادهم...

مقام عال.. قبة من الرخام وركوع وسجود يشترك فيه الملك والرعية على السواء.. كل هذا لكتاب النيل فى نظر القاص الشعبى (الذى يجلب لهم النيل ويجرى المياه)...

بهذا كان يحدث الشعب سماره فى الليالى والحلقات وكتاب النيل له أيضا كرامات:

جاء فى هذه القصة أيضا أن الكتاب له كرامات ظاهرة؛ ومن جملتها أنه يحفظ نفسه من الغريم ولو كان ملكا جبارا (جسيم)...

وإن الملك قمرون كان يقول ويعتقد أن: الكتاب هذا يأخذه ملك عظيم ويجرى به النيل الجسيم ومنه تروى أرض وأقاليم

ويبقى به ملك مستقيم..)

والنيل هنا في قصة سيف بن ذي يزن يقترن بالملك فقد وزعت القصة بينهما الحراسة والاحترام. وقديما عبد المصريون ملوكهم باعتبار الملك سيد النيل، كما عبد الفراعنة النيل ممثلا في أوزوريس وخنوم. فالقاص الشعبي حين يربط بين الملك قمرون والنيل؛ فإنما يفعل ما فعلته مصر القديمة منذ قرون خلت.

وإذا تعمقنا هذه القصة وجدنا فيها ظلالا وإمتدادات كثيرة للماضي المصري، فاقتران العبادة ببزوغ الهلال؛ والصندوق الذي يضم شيئا مقدسا، والتابوت النفيس المصنوع من خشب الساج؛ والمصفح بصفائح الفضة؛ وجمع الرب أعوانه، والستائر الحرير والقبة الرخام؛ كلها تذكرنا بصلاة الشكر والابتهاج التي كان يقيمها قدماء المصريين عند بزوغ نجم الشعرى اليمانية الذي اقترن عندهم ببدء فيضان النيل وكانت الاحتفالات يشترك فيها الملك والأمراء مع الشعب.

ويذكرنا التابوت المصفَّح بتابوت أوزوريس الذي احتال أخوه «ست» حتى أدخله فيه ثم سارع بإغلاقه عليه وإغراقه في النيل.. وعبادة أوزوريس بعد هذا واعتباره إلها للموتى وقاضيا بينهم، كما اعتبروه رمزا للخصب والخير حين ذهب (ست) في تاريخهم

رمزا الشر والجفاف والصحراء.

أما الصندوق الذى يقبع الكتاب فيه؛ فيذكرنا باصبع الشهيد عند الأقباط فقد كانوا يضعونه فى صندوق ويعتقدون أن النيل لا يفيض إلا إذا فتح الصندوق وألقى الاصبع فيه بين مظاهر التوقير والحفاوة ثم يعاد الاصبع إلى الصندوق لينتظر العام التالى.

ولا أزعم أن القاص الشعبى كان يعرف المعتقدات القديمة والأساطير الأولى معرفة صحيحة، ولكن يكفى أنه سمع بها ولو فى صورتها الشعبية المحرفة، ليستطيع؛ بخياله هو، أن يبنى على سمعياته ويكيفها كما يشاء.

أما الستائر الحرير والقبة الرخام والكرامات فهى مظاهر ومعتقدات إسلامية تداخلت مع الرواسب الفرعونية والقبطية لتصنع قصة كتاب النيل.. على أن كلمة (كتاب) هنا تذكرنا بكتاب عمر بن الخطاب المشهور ألذى أرسله ردا على كتاب عمرو بن العاص إليه، بشأن العروس... فعمر لم يكتف بالزجر والمنع بل كتب كتابا ليلقى فى النيل..

من هذا كله نرى أن الخيوط كانت بين يدى القاص الشعبى وكل ما فعله أنه أمسك أطرافها ونسج منها قصة (كتاب النيل).

والذى أرجِّحه هنا أن أهل «قيمر» فى القصة الأصلية كانوا

يعكفون على عبادة شيء.. شيء في صندوق أو تابوت. ولكنه ليس (كتاب النيل) فيما يبدو فقد ذكر ياقوت أن (قيمر بفتح القاف وياء ساكنة وضم الميم وراء) هي قلعة في الجبال بين الموصل وخلاط ينسب إليها جماعة من أعيان الأمراء بالموصل وخلاط وهم أكراد ويقال لصاحبها أبو الفوارس.

فما شأن قيمر إذن بالنيل؟ وما هو أثر النيل فيها حتى تعبده أو تحتفي به هذه الحفاوة التي تزعمها القصة؟

إني أرجح مرة أخرى أن قصة سيف بن ذي يزن حتى دخلت مصر؛ قد لمسها القاص الشعبي عندنا في عدة مواضع تصلح أن تصطبغ باللون المحلي. وقد أشرنا إلى بعض هذا من قبل.. وهذا أمر طبيعي أن تتلون القصة في كل بلد بلونه؛ وأن يخلع عليها طابعه ويلقي عليها ظلالا من آرائه ومعتقداته وأساطيره. وبخاصة إذا كان لهذا البلد شخصية قوية تفرض نفسها فرضا وتترك ميسمها وإنطباعاتها على الوافد عليها. وقد فعلت مصر هذا وأكبر منه، في كل عصور تاريخها. حتى في الأوقات التي كانت فيها مغلوبة على أمرها، لم تقهر شخصيتها ولم يختف طابعها.

فعلت مصر هذا مع الأشخاص المستطلين بالنفوذ المعتزين بالحكم؛ المتكثرين بالقوة. فليس غريبا أن تلون قصة وأن تكيف

أحداثها ووقائعها.. ويتجلى هذا بوضوح فيما ورد في قصة سيف بن ذي يزن عن منبع النيل (١) فالجبل العالي والقبة، والسؤال المستطلع؛ واستهداء الدليل؛ وانحدار الماء؛ ماء النيل، أبيض من اللبن وأحلى من العسل وأزكى من المسك.

والنهران الباطنان والنهران الظاهران والصلاة على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام والياقوت وهج اللمعان والظفر بالوصول إلى المنبع.. كلها أمور ووقائع نلتقي بها في قصة (حائذ بن شالوم) والتي يرجع بعض أحداثها إلى أصولها القديمة من الفرعونيات والاسرائيليات.. مما يعزز ما ذهبنا إليه من تكييف مصر للقصة وفق هواها.

أما منبع النيل في قصة سيف بن ذي يزن فقد تداخلت فيه الأساطير الشعبية في الأساطير الإسلامية.

***

فهي تلتقي عند القبة وتتفق على لون الماء وطعمه ورائحته.. الماء الذي يفوق اللبن نصوعا، والعسل حلاوة، والمسك شذى وعطرا.. الماء الذي ينحدر منه النيل...

وقد عرض الدكتور جمال مرسي بدر لما كان القدماء يظنونه من وجود فرع جوفي لنهر النيل يتفرع عن مجراه الرئيسي جنوبي أسوان؛ ويسير في جوف الأرض تحت الصحراء الغربية

فى خط يصل بين الواحات المتفرقة فيها، وأن مياه الواحات هي من ذلك النهر الجوفي الذى يصب فى البحر تحت الأرض أيضا. ويبدو أن الأساطير الشعبية لم تخل من أثر لهذا الفرع الجوفى للنيل، إذ يحدثنا الدكتور هيرست في كتابه «النيل» أن نوتيا من أهل النوبة حدثه عن تاجر، كان مسافرا في النيل؛ فغرقت سفينته قرب أسوان، وفقد أمتعته، ومن بينها إناء من خشب كان يستعمله في تناول طعامه، وفي السنة التالية كان ذلك التاجر يحمل بضاعته إلى واحات الصحراء الغربية؛ وبينما كان يملأ دلوه من بئر في احدى الواحات إذ به يرى إناء بعينه طافيا على سطح ماء البئر، وقد حمله إلى هناك تيار الماء فى فرع النيل الجوفى الذى يتفرع عن المجرى الرئيسى قريبا من المكان الذى غرقت فيه سفينة صاحبنا التاجر، ويسير فى جوف الأرض تحت الصحراء خلال واحاتها المختلفة.. وقد كان هذا الفرع الموهوم يظهر في الخرائط الجغرافية القديمة؛ وظل يصور فى بعضها إلى سنة ١٨٦٠.

مجرد توهم وجود فرع جوفى للنيل يسير بعيدا فى الصحراء خافيا لا تراه العين، حتى مصبه فى البحر تحت الأرض أيضا؛ ورغم هذا ظهر هذا الوهم قصة فى الأدب الشعبى مما يدل على قوة شعور بالنيل ويقظة حس. إن النهر عند أهل الوادى حاسة

سادسة تصلهم بالكثير من أخباره حتى مالا يرتفع منها على مرتبة الظن والتخمين.

إن أى خبر عن النهر صالح لأن يكون فى الأدب الشعبى نواة أو أسطورة من كثرة تداولهم له وإنفعالهم به...

ولعل هذه القصة صدى بعيد للنشيد الفرعونى:

لقد خلقت النيل فى العالم السفلى

ودفعت به إلى (أعلى) حسب مشيئتك

لتحيى به البشر يا سيد الجميع

لقد جعلت نيلا يهبط اليهم من السماء

جعلت لهم أمواجا تتدافع على الجبال كالبحر

فتجد حقولهم ما تحتاج إليه من الماء

ما أعظم تدبيرك ياسيد الأبدية

وهبت نيل السماء لشعوب الجبال

فاحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه

أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم لسفلى

وفى ترجمة أخرى (أماالنيل «الحقيقى» فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر).

فالنشيد يعترف بنيلين نيل لمصر ونيل للأجانب ولكل خيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام.

وغير بعيد أن تتولد من رواسب هذا النشيد فكرة نهر جوفى أو فرع جوفى للنيل؛ وفى الصحراء التى لمحها النشيد القديم وجعلها بعض مناطق النيل الآخر.

وهناك قصة يلوح النيل من خلالها.. إنها قصة (يونس وعزيزة) أو.. الوالد الذى أراد أن يحجب ابنته عن العيون لا ترى أحدا ولا يراها أحد.. وتوافد الخطاب على بابه من كل صقيع... المدينة والشام ومكة.. ولكنه ازاء هذا بنى لها قصرا وبالغ فى إرتفاعه ليضرب حولها نطاقا وأحاطها بألوان الترف والمناعم.

عشرة الاف وميية فدان

فيها من اللوز وشجر الجوز

وفيها من جنة رضوان

وناموسية كانت غية

بكواكب بعشرة عمدان

والقلل نول من الجوهر

أما الدهب عملوه غطيان

حا اعمل أيه بالجناين

حا أعمل أيه بالجناين (٣)

الخيال هنا امتد وتوسع، فالخصب ليس شبرا من الأرض

ولكنه (عشر الاف ومية فدان) تسرح العين فى مداها وتعود..
ولم لا.. إنه منظر مألوف فى وادى النيل فى مصر.. وفى الدلتا بخاصة..

وأما قصة (خضرا) فالاشارة فيها إلى الريس أى ملاح النيل

المغنى - أنا جيت أبشرك رأيت العجب على بحر الله

المرد - لا اله إلا الله.

المغنى - الصارى بأس عالى والقلوع من فضة.

المرد لا إله إلا الله

المغنى - أما الريس جدع كويس والنوتى راجع فقره..

ولعل الفنان الشعبى هنا قد لمح حكاية «أنس الوجود» مع الورد فى الكمام» فقد بنى لها أبوها قصرا منيعا لم ير مثله الراءون فى جبل الثكلى القائم فى وسط بحر الكنوز (وذلك الجبل لا يقدر على الوصول إليه أحد الا بالمشقة) ثم تجعل القصة «أنس الوجود» يهيم على وجهه فى البرارى والقفار مقتفيا أثر ركب الحبيبة و(لم يزل ماشيا فى الأثر أياما وليالى حتى أقبل على بحر عجاج متلاطم الأمواج ووصل الأثر إلى شاطىء البحر وانقطع فعلم أنهم ركبوا البحر وساروا فيه. فخاض البحر راكبا شنفا حتى وصل بالشنف إلى وسط البحر وهبت عليه ريح فزقه بالشنف حتى غاب عن عين العابد. ولم يزل سابحا فى لجة

البحر ترفعه موجة وتحطه أخرى وهو يرى ما فى البحر من العجائب والأهوال إلى أن رمته المقادير على جبل الثكلى).

. وفى قصة أنس الوجود والورد فى الأكمام تدل المخاوف التى يتعرض لها البطل فى سبيل الوصول إلى الحبيبة، على أخطار البحر الذى اجتازه.

وللقصة أصل رومانى يروى حول بناء معبد أنس الوجود المعروف.

أما فى قصة (خضرا) وقصة عزيزة ويونس فإننا نرى ملامح البحر من بعيد فى قصة عزيزة ويونس شأن الطريقة المألوفة فى القصص الشعبى من أن الحبيبة عسيرة المنال. ففى القصة يحجب الأب ابنته فى قصر. وهذا يذكرنا بقصة أنس الوجود والورد فى الأكمام.

الهوامش

(١) يقول الراوي.. بعد ذلك أقبلت عاقصة إلى الملك وقالت له: ياملك الزمان، مرادي أفرجك على الدنيا ومافيها من العجائب.. فقال لها: يا أختي افعلي مابدا لك.. فتقدمت وحملته على كاهلها ولم تزل سائرة بهمة في البراري والقفار.. وقالت له وهي حاملة له: أنا يا أخي لما أتيتك وأنت في المغار كان على أي شيء أقهار.. فحكى لها عن كتاب النيل فقالت له. أنا أفرجك على ماينتج من كتاب النيل وما يصير منه.. ثم نزلت به عند جبل عال وقالت له: انظر أمامك.. فنظر الملك سيف إلى قبة على بعد في الجبال لم يكن عندها أحد ولا فيها أبيض ولا أسود.. فقال لها: هذه قبة في الجبل.. فقالت له: سر إليها وتفرج عليها فإنك لابد لك فيها من أحوال.. فقال لها: سيري معي حتى تدليني على ما أفعل من الأعمال. فقالت: يا أخي مالي إليها وصول وما أنت أخي فإنك أنسي وملك وكل ما فعلته مقبول فسر وتوكل على الله.. فسار الملك سيف في طلب القبة حتى وصل إليها وإذا بالماء.. وهو أبيض من اللبن وأحلى من العسل ورائحته أزكى من المسك.. وهو يخرج من أربعة جوانب تلك القبة فمنهم نهران إذا خرجا من القبة يغوران تحت الأرض ونهران ظاهران.. فتقدم الملك سيف ووقف وتوضأ من أحدهما وصلى ركعتين وأمهما بالسلام على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام وبعد ماصلى ركعتين دخل تلك القبة فرأى فيها صخرة من الياقوت الأحمر لها لمعان يأخذ بالبصر فتقدم الملك سيف إلى هذه الصخرة وصعد منها إلى أعلاها وصلى ركعتين فوقها وهو يتلو صحف إبراهيم عليه السلام وبعد ذلك صاح على

عاقصة أن تأتى إليه فنادت وقالت: ياملك أنا لا أقدر أنا أقرب منك ولاخطوة واحدة وإن تقدمت إلى هذه البحيرة تحرقنى صواعق هذه الصخرة.. فقال الملك سيف: ها أنا واقف فوقها.. فقالت له: لولا أن لك عند الله أعلى المنازل لما كنت تقدر أن تعلو عليها.. فقال لها.. : قصدى أن أسألك عن هذه الأنهار ومسيرها فى البرارى والقفار.. فقالت له: أما النهران الظاهران فهما سيحون وجيحون سائرين إلى بلاد الترك والروم بإذن الله تعالى الحى القيوم.. وأما الغائران.. الباطنان: فأحدهما الفرات وأما الثانى فاسمه النيل الذى يجرى على يديك أيها الملك الجليل. فلما سمع الملك سيف ذلك الكلام قال: ياعاقصة أما هو الذى أتيت أنا فى طلب كتابه الذى طلبه منى سقرديون حلوان شامة بنت الملك أفراح.. فقالت له: نعم يافارس الأبطال وليث البطاح وقد استعجلت ودخلت القبة والكتاب رمى عليه بعد مادار على القاعدة وأتاك وأنت بين الأعداء وتكاثر عليك أهل المدينة والملك قمرين وأرادوا بأن يسقوك كأس المنون.. فقال الملك سيف هل تعرفين ياعاقصة ايش جرى فى الكتاب.. فقالت: لا تخف عليه فإن الحكمة جعلته لك علامة حتى تأتى لطلبه ومرادها تزوجك بنتها طامة مع أن ذلك لايكون الا بعد ما تتزوج بنت الملك أفراح الملك شامة..

(٢) كتبت هذه الأبيات كما هى وإن كنت أرجح أن الشطر الأول هو الشطر الثانى لصدر محذوف والباقى أربعة أبيات كل شطرين بيت ينتهى بقافية النون..

الفصل الخامس

النيل فى الأمثال الشعبية

وإذا كان المثل الشعبى مرآة لتجارب الشعب وبلائه فى الحياة والأيام والأحداث والناس؛ وإذا كان المثل الشعبى ركيزة ضخمة ينقب الباحث فيها عن آراء الشعب وفلسفته فى الحياة وحكمته وأمانيه أيضا وآلامه ورغائبه وأحلامه، إذا كان المثل الشعبى أوضح صورة لتفاعل الشعب مع البيئة التى يعيش فيها والتى هى - درى أم لم يدر - مسرح خواطره ومعين أفكاره ووحى أقواله.. إذا كان المثل الشعبى كل هذا؛ فإنه مجلى كبير من مجالى هذه الدراية فقد صنع النيل فيضا من الأمثلة الشعبية أى بلور آراء هذا الشعب وأفكاره فى عبارات وألفاظ. فيها أحياناً كثيرة، الحكمة وفصل الخطاب. ولنبدأ أولا بالأمثلة النيلية ثم نتبعها بالأمثال الزراعية.

الأمثلة النيلية:

(إن جاك النيل طوفان خد ابنك تحت رجليك)

(ادينى عمر وارمينى البحر)

.. إنه يهولهم - فحينما أراد الفنان التعبير عن المبالغة فى إمكان نجاة طويل العمر إتجه إلى النيل... البحر...

وهو مبارك ومن دعائهم الجارى مجرى المثل (يبارك فيك كما بارك في بحر النيل).

ويبدو أن هذا الدعاء امتداد لما كان يجرى فى مصر القديمة. فقد جاء فى كتاب (شكاوى الفلاح) كن كإله النيل يجعل الأرض الجدباء أرضا خضراء؛ ولا تكن كالسيل يدمر ما يأتى عليه، واحذر الآخرة.

وعندما أراد السخرية من الحريص الشحيح، استمد سخريته أيضا من... البحر فقال:

(ارميه البحر يطلع وفى بقه سمكة)

وعندما يريد الشعب أن يهون من الخطوب أو يسخر منها يقول:

(يعنى هو البحر هيجرى مقبل)

هذا هو الخطب الحقيقى فى نظره وشعوره..

(اعمل الطيب وارميه البحر)

وفى مصر القديمة كان مالا ينتظر حدوثه يوصف بأنه لن يقع حتى يجرى الماء صعدا...

إن البحر واسع هائل يتضاءل بجانبه كل شيء حتى لا يكاد يظهر.

(البحر ما ينعكّرش من ترعة)

إنه أكبر من أن يهزه شيء.. إنه أعظم من السحر نفسه.. ألم يقولوا...

(البحر ما ينفد فيه السحر)

(البحر يعوز الزيادة)

إنهم هنا يرصدون ظاهرة الفيضان وليس أدل على هذا من المثل...

(البحر يوفي من قيراط)

ومن الأمثلة التى أوحاها النيل عندما تعاونوا على إقامة سدوده...

(البركة في كتر الأيادى)

(البركة في اللمة)

وألفوا فيضه وتدفقه فباتوا يستقلون كل ما عداه.. ومن ثم وجدنا بين أمثالهم مثل قولهم:

(عمر التشفيط ما يملاش قرب)

وتعاونوا منذ القدم على إقامة السدود لمواجهة فيضه.. حتى لكأن هذا العمل دون سائر الأعمال فطرة وطبيعة. فهم يسمون السُخرة فى سبيل النيل (العونة) لعمق شعورهم بضرورة التعاون على حماية الوادى من فيضانه حين يكون غامرا.

(العونة يا فلاحين قال من كل بلد راجل)

وهم يتقبلون التسخير مع ما يطويه من ظلم وإرهاق لأنهم يحسون في نفوسهم أن حياتهم ومصالهم تتطلب هذا العلم؛ وأن وجودهم في هذه البقعة من الدنيا يقتضيهم حماية الجسور والسهر عليها. وهم بتعاونهم وتوحدهم يستجيبون للنواميس الطبيعية ولا يعنينا إن كانوا عرفوا معنى التوحد من الناحية الفلسفية أم صدروا عن شعور نفسي بالحاجة إليه ولكن ما فعلوه هو التوحد بعينه.

والتشريع المصرى ينص على أن النيل إذا بلغ أربعة وعشرين ذراعا أصبح لزاما على كل مصرى من أى طبقة العمل على حماية البلاد من فيضه؛ وأصبحت الحكومة في حل من أخذ ما تقتضيه الضرورة الدفاعية في هذه الحال.

ولعل شعورنا العميق بوجوب التجمع والتوحد عند خطر النيل هو سر الحيوية المصرية التي تستيقظ فجأة عند الخطر حين لا تدل الدلائل على هذه اليقظة قبل وقوعها.

وهم راضون بالسُخرة يسببها فيضانه أو حتى طغيانه. فهى خير عندهم من تخلفه وغضبه وفى أمثالهم:

(الغرق ولا الشرق)

(لاخير فى زاد يجى مشحوط ولا نيل يجى فى توت)

(ما يموت ع السد إلا قليل الفلاحة)

(زى غز الجيزة تملى السجادة ع البحر)

(حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا

وهو مثل نقله المغفور له تيمور عن الابشيهى... لما كان يقابل المثل الشعبى.

(أكلنا يا بدر لا رحنا ولا جينا)

(حسب حسب المريسى وان جاك طياب من الله)

(إن كان لقلعك ريح انفضه)

(إن كنت ع البير اصرف بتدبير)

(إن كنت فلاح ولك مقدرة على فحلك من ورا)

(آيش جاب التين للتين واش جاب الترعة للبحر الكبير

وايش جاب العبد لسيده.. قال لده طلعه وإده طلعه)

(البحر غربال الخايبة)

إنه ملجأ العاجز. ويفسر الأستاذ تيمور المثل:

بأن البحر هو نهر النيل وأن الفلاحة الخايبة لكسلها وقلة عنايتها بغربلة قمحها تعتمد فى تنظيفه على غسله فى النيل فيقول لها مقام الغربال...

(شال المية بالغربال)

(العطشان يكسر الحوض....)

وركب مغربى سفينة فى النيل من الاسكندرية كان يظن أنها

ترسو على مسجد أحمد بن طولون - وكان فقراء المغاربة ينزلون به ولا سيما وقت مرورهم بمصر للحج ولا يحتمل كراء الانتقال إليه على الدواب فرست السفينة على الشاطىء وأشار له الملاح بالنزول بعد ما تقاضاه الأجر فأبى وقال: (على قلبها لطالون) أى لا أزال فيها حتى توصلنى إلى المكان المقصور فذهبت مثلا....

(الغرقان يتلقف على ديسة)

(قبل ما تتعلم العوم تغاطس)

(قبل ما تحارب دارج وما تقلش قبيح وامش تحت الجرف زى القارب لما يطيب الريح)

(قد الزيلة يقاوح التيار)

ومثله:

(بعره ويقاوح التيار)

(كل قناية مدايقة بميتها)

(لف سنه ولا تخطى قنه)

(المية تكدب الغطاس)

(المية تنشرب من أيد ساقيها)

(مية مالحة ووشوش كالحة)

(المية تجرى فى الواطى)

(المية في كعب البهيم)

(يعوم ويحرس ثيابه)

(بير تشرب منه ما ترميش فيه حجر)

هنا تقديس الماء وحرمته والتحرج من أن يشوبه شئ ..

(تجي ع الشعب وتطيره)

زي الرهريط لا يبني ولا يسد خروق)

زي الزقازيق كل منهو شوكته في ضهره)

(البير الحلو دايما نازح)

ومن أمثلة الملاحين:

(الريس في حساب والنوتي في حساب)

(زي المراكبية ما يفتكروش ربنا إلا وقت الغرق)

(زي المراكبية يتخانقوا على حبل)

(زي النوتي الغشيم تقله ع الخشب)

(راكب بلاش ويناغش مرات الريس)

وقد زاد Biockhard Travels

(إذا كترت النوتية غرقت المركب)

(الريس يحبك امسح يدك في القلع)

كما زاد من أمثلة المياه والمعدية والمراكب والريح والسمك..

(إذا حضر الماء بطل التيمم)

(المستعجل والبطيء عند المعدية يلتقى)

(تضارب الريح والبحر قالت المراكب دى نوبة وقعت علينا)

(تجرى الرياح بما لا يشتهى السفان)

(جا واحد يعد أمواج البحر غلط قال الجيات أكتر من الريحات)

(فرحنا بالنيل جا النيل غرقنا)

إن فى الذم هنا اعترافا بالنعمة التي يفرح لها أصحابها حتى إذا أخلفت ظنهم عتبوا ...

(قال السمك البنى إن لقيت أحسن منى ما تاكلنى)

(ما فى المعدية واحد الله)

(وداه البحر وجابه عطشان)

أشار المؤلف إلى أن البحر بحر النيل...

(يغرق فى شبر ماء)

وجاء فى كتاب (أمثال المتكلمين من عوام المصريين)

(المية حياة الأنفس)

(أنت توعى على فحت البحر)

(إن قال لك البحر مبحر اوعه تطاوعه)

(المعداوى القديم مرحوم)

وهناك مثل قد يبدو فى ظاهره بعيدا عن النيل وهو فى

الحقيقة وثيق الصلة به وهو قولهم:

(يعلى مقامك ويوطد حزامك) ففى طوافى بالمتحف المصرى وجدت أن الفنان المصرى القديم قد استخدم موج النيل حين نقش به الحزام الذى منطق به تماثيل الملوك من عهد سنفرو حتى آخر أيامهم.. لقد أراد أن يحيط البطل بالقوة والخصب والخير ... ولعل ظلال هذا فى الأدب الشعبى الدعاء (يعلى مقامك ويوثق حزامك) فكلما كان الحزام مشدودا على الوسط نَمَّ عن القوة والتماسك.

والنيل فى الأدب الشعبى كما تصوره الأمثلة النيلية يمثل عندهم؛ بطوفانه؛ الروع العظيم.. إنه فى عينهم كبير هائل. كل شئ يلقى فيه يفنى وكل كبير أمامه يتضاءل ومن ثم استوحوه عندما أرادوا أن يعبروا عما يقدرون له الضياع والزوال. أو عما يصيب المرء فيه من أخطار فقالوا:

إعمل الطيب وارميه البحر

قالوا اديني عمر وارميني البحر

وهكذا نجد لفظ (أرميني البحر) تعبر عن إحساسهم أن البحر أشد الأخطار هولا وأن ما يُرمى فيه يتلاشى ويفنى.غير أن أطول العمر فى رأيهم أقوى من الموت. وهى نظرة قدرية فهم لا يؤمنون بأن الحياة تجرى وفق نواميس ثابتة بل كل شئ قابل

لحدوث معجزة.

والمجتمع الشعبى أغلبه لا يفهم المعنى الدينى فهما قريبا؛ فإن قرأت عليهم (ليس للانسان إلا ما سعى)

فهموها إلى جانب غيرها من آيات التوكل فتغلب عليها.

وهذه النظرة القدرية لا تتنافي مع نظرتهم إلى النيل بل لعلها تلتقي معها فقد أثرت هذه الأمثال عن وقت كانوا فيه ينظرون إلي النيل نظرة مماثلة فالله يسخر الأنهار الأخرى للنيل إذا زاد نقصت وإذا نقص زادت وأشباه هذا مما سبقت الأشارة إليه فى الفصول السابقة.

والنيل فى الأدب الشعبى مظهر رسوخ وتمكن فهو لا يهزه شئ وهو أيضا مظهر قوة وغلبة وتماسك. فهو لا ينفد فيه سحر. وقد علّم النيل قومه اليقظة والحذر والاستعداد لمواجهة الطوارئ؛ يعكس هذا قولهم:

«أحسب حساب المريسى وان جاك طياب من الله». وهو مصدر زهوهم «ايش جاب الترعة للبحر الكبير».. وهو ملاذهم إن أعيتهم الحيلة أو أعوزتهم الوسيلة وهم يخافونه بما وقر فى نفوسهم من هيبته وبطشه معا بعكس هذا قوله (ألف سنة ولا تخطى قنه) ومن ثم اعتبروا ركوبه أمارة عز وقوة.

وعيٰنهم تلمح فيه حتى صغار السمك فتدخل «الزقازيق» فى

رسم صورة الاستقلال بالذات وعدم الاعتماد على الغير.

وهم يسخرون من الحظوظ سخرية ملفوفة فى صورة مستمدة من النيل. فلما كانت المعدية لا تبحر الا مرة موقوتة؛ تساوى عندها المجد فى السعى والبطئ فيه.. السابق سينتظر اللاحق .. كما سخروا أيضا من الحظوظ تدين البرئ وتترك المذنب والأقدار تجرى على غير إرادة الانسان. كما سخروا من العاجز يغلف خطأه بالفلسفة.. ومن المرء يحرص على شئ فيؤتى منه، والمضطر لا يملك الخيار من أمره، والأبله تبلغ به الغفلة أن يرى النيل ولا يبل صداه، والعاجز يعييا بأهون الأشياء؛ والساذج يستميت ويضحى حياته دفاعا عن شئ لا يملكه ولا يعود بالنفع عليه.

والنيل عندهم قديم مُعْرق فى القدم، فإذا أرادوا الغمز بكبر السن قالوا لغريمهم (أنت توعى على فحت البحر).

وقد رسم الأدب الشعبى صورة غنية بالألوان والتفاصيل لطائفة من طوائف الشعب كالملاحين، إنهم قوم لا يؤلف بينهم رأى.. لا يستيقظ وجدانهم وضميرهم إلا إذا طاف بهم عاصف من ريح أو شدة، وهم لا يعرفون قدر المرء إلا إذا مات عنهم أو ابتلوا فى مكانه بظالم لا يرحم. وهم أشحاء خلافهم يقوم على حبل تافه وهم متكالبون على الرياسة كل منهم يرى فى نفسه

ربانا.

هذه هى الصورة التى رسمها الأدب الشعبى للملاحين مستعينا بطبيعة عملهم فى النيل وإن كانت هذه الصفات ليست قاصرة على الملاحين فهى توجد على تفاوت فى الطوائف الأخرى.

تصوير للمجتمع فى أسلوب؛ على شعبيته، مركز موج سريع اللمح.. والخطوط .. صور؛ فيها جد وسخرية. فيها حكمة واقعية؛ فيها أخلاق ووقائع؛ وسذاجة حينا وحصافة حينا آخر.

والصورة فى المثل الشعبى ليست مقصودة لذاتها كالأغانى الشعبية بل هى وسيلة للتعبير، أو مبدأ فى الحياة أو رأى فى الناس؛ أو فلسفة شخصية مجرد وسيلة للتصوير أو أداة للتفسير.

وأهم ما فيها استعانة الفنان الشعبى بالنيل فى التصوير والتعبير. استمد من طبيعته اللفظ والمعنى فمراكبه ورياحه وملاحوه وتياره وأمواجه وأسماكه وطوفانه ووفاؤه وزيادته ونقصانه ومواعيده وشهوره والعمل على حماية جسوره؛ والاحتشاد من أجله والغرق والشرق والمترفون الذين لا عمل لهم إلا الاستمتاع به وتنسم هوائه والكادحون على صفحته وعلى شاطئيه وفى واديه والفلاحات حتى (الخايبة) التى تتخذ منه

غربالا، والغرقى فيه والسابحون .. حتى (رهريطه) اتخذ منه الفنان مادة لصورة عنوانها .. التفاهة..

كل هذا اشترك فى تخطيط الصور وتوزيع ألوانها وأضوائها والظلال...

وليست بى حاجة فى هذا الموضع إلى رصد الألفاظ النيلية التى صيغت منها الأمثلة لأنها سداها ولحمتها. وإنما يكون الرصد والاختيار حيث يختلط المقصود بغيره مما لا يدخل فى اعتبارات الدارس أو تقديره. فيكون للتمايز معناه وللتصفية دلالتها.

ويلاحظ أن الفنان الشعبى قد أطلق أمثلته من وحى تجاربه التى مر بها الآخرون فى صورة من الصور أو وقت من الأوقات.. مروا بها هم أنفسهم أو من خلال غيرهم.

ومن ثم اعتبر المثل واقعاً اجتماعيا من حيث صدقه ودلالته وذيوعه وتواصله على الأيام وأثره فى النفوس بما يخلع على الأحداث والأشياء من تبرير أو تعليل أو تهوين أو تقسيم .. وهنا يقف النيل من وراء الأمثلة النيلية موجها للحياة فى واديه، محددا للقيم فيها.

والفنان الشعبى فى هذه الأمثلة احتفل بالتجربة التى عاش فيها ولمس آثارها؛ فصورها فى لفظ مباشر لا يتكثر بالفضول

ولا يتحامل على السجع - إلا ما جاء سجية أو عفوا - ولا يتكلف الصناعة؛ ولا يفتعل الزخرفة ومع هذا سارت لم تخمل، وصمدت أمام الفصيح الذى يقابلها فى المعنى ويوافقها فى الغرض مما يحتشد له أصحابه ويتأنقون فى عرضه وإخراجه.

وقد اتسم كثير من هذه الأمثلة بالوعى وفى بعضها ادراك قد يعمق حينا حتى يصل إلى مطاوى النفوس.

شئ آخر ينبغى أن نسجله هنا.. إن هذه الأمثلة؛ أو كثيرا منها، امتداد لنظائر لها أثرت عن مصر القديمة.

فمن وحى النيل فى أدب مصر القديمة، هذه التشبيهات والاستعارات التى جمع جرابو كثيرا منها مما ورد فى النصوص الهيروغليفية ومن ذلك:

إذا فاضت الآبار فى الصحراء بالماء؛ فقد كانت توصف بأنها فاضت كنبعى النيل فى الفنتين ...

وكان الفيضان السنوى صورة لتجدد الحياة باستمرار فكان حورس يقول للملك الذى يقدم له قدر ماء «إنى أتيح لك أن تجدد ميلادك كالماء ذى الحياة المتجددة».

وكان العمل الناجح يوصف بأنه يجرى (بفيض) كالنيل..

وكان المصريون يصفون الوفرة والشبع بالفيض. حتى أنهم كانوا يقولون إن عفن الرمم غمر الوديان.

وكان الكاتب الذى يلقى إلى زميله بالكلم الجميل يوصف بأنه يصب عليه مختار الكلم ليجرى له منها نيلا..

وكان النبيذ فى القباء يوصف لكثرته كأنه مياه الفيضان.. ولم يكن يقال إنه غمرها نيل؛ كما كان انهمار المطر يوصف بأنه نيل من السماء، واللبن كأنه الماء يفيض به ثديا إيزيس. وإذا نكل بالأعداء كان يقال إن الأرض تجدد ماءهم كأنه الفيضان. وإن نهرا من الدماء سال.

وكان الملك الطيب الذى يعنى برعاياه يشبه بالنيل واهب الخيرات.. فكان اخناتون يوصف بأنه النيل؛ وأنه النيل الذى يفيض كل يوم؛ والذى بأمره يغنى الإنسان، وأنه النيل لكافة البشر، بطعامه يشبع الإنسان. وقد وصف غيره من الملوك بأنه النيل العظيم الذى يحيى كل بلد بطعامه. والنيل فى الحقول.. يكسبها خضرة.. والنيل لمصر.

وقد وصف أحد الحكام بأنه النيل لأتباعه ومدح امنمحات الثالث نفسه بأنه جعل الأرض أكثر خضرة من نيل عال....

وكان النيل يوصف كذلك بالموج المسالم والمجرى البراق وكان الموظف الكبير يوصف بأنه النيل الذى يخضر المزارع والذى يجعل الحقول الجرداء صالحة للزراعة من جديد.

وإذا كانت الجسور تحمى البلاد من خطر الفيضان؛ فقد

غدت صورة الحارس الحامى.. فكان الموظف يوصف بأنه أقيم كالجسر للفقراء. ووصف رمسيس الثانى بأنه جسر طيبة. وشبه الشاعر الملك بأنه جسر يحجز أمواج الماء...

ويتصل بهذا تعريفهم الملك بأنه هو النيل.

نيل كل البلاد

النيل العظيم لكافة البلاد

النيل الذى يحيى سكان الأرض...

وفى قصة رع وايزيس جاء هذا التعبير (تملك السم جسده كما يتملك النيل أرضه)...

وهكذا تلتقى عصور مصر عند النهر. ففى مصر القديمة؛ كما فى مصر الشعبية، كما فى مصر الحديثة؛ تتصل حياتنا بالنيل وتطوف أفكارنا حوله وهو بأحوال طبيعته وظروف إنتفاعنا به واستخدامنا له، يتدخل فى وجوه التعبير المختلفة، ويتداخل فى الصيغ. وبعض هذا الذى تشير إليه الأمثلة النيلية التى استمدها قائلوها من صلتهم بالنيل وانفعالهم به.

وتأخذ عين الدارس هنا تقارب وجوه التعبير بين الأمثلة المصرية القديمة والأمثلة النيلية الشعبية. لأن الشعب هو الشعب وفلاح مصر الحديثة المتعلق بالنيل هو صورة من فلاح مصر القديمة وإمتداد له. فتقارب وجوه التعبير جاء من تقارب القائلين

والتقائهم فى المشاعر والوراثات وقد سبق أن قارنا بين مصر فى عهدها القديم وبين مصر فى العهد العربى. فاتسعت الشقة بين الأثنين لاختلاف القائلين.. اختفت هنا عوامل الوراثة ورواسب الأصل.. وحين اختلف المؤثر، اختلف الأثر.

الفصل السادس

النيل والأمثلة الزراعية

أما الأمثلة الزراعية فإننا نسجلها هنا لخاصيتين:

الخاصية الأولى اتصالها بالنيل الزارع والخاصية الأخرى دلالتها على الخلق المصرى والتفكير المصرى والاسلوب المصرى فى العيش والحياة مما يؤيد ما سبق أن رددناه من أن النيل، كما صنع الحياة فى مصر؛ صنع العقلية المصرية والنفسية المصرية والخلق المصرى.. أيضا.

(احضر أردبك يزيد)

(الأرض تضرب ويا أصحابها)

(الأرض موش شهاوى دى ضرب ع الكلاوى)

(ازرع كل يوم تاكل كل يوم)

(اللى ما يروح الكوم ويتعفر، لما يروح الحلة يتحسر)

هذا الاعتماد على النفس والجد والعمل.. وسلامة التفكير...

(اداين وازرع ولا تداين وتبلع)

وعدم الفضول...

(أردب ما هو لك ما تحضر كيله تتغبر دقنك وتتعب فى شيله)

وسخرية من الادعاء..

(اشترى بدرهم بلح بقى له فى الحى نخل)

وتعجيز..

(اضرب الأرض تطرح بطيخ)

وسخرية وتنديد..

(أكل فوله ورجع لأصوله)

وتحذير...

(اللى ما تشبع برسيم فى كياك ادعوا عليها بالهلاك)

ثم رضا وقناعة..

(اللى عنده عيش وبله عنده الفرح كله)

وهكذا تترجم الأمثال الزراعية عن الروح المصرية والطبيعة المصرية والأخلاق المصرية فى صدق وصراحة ووضوح...

(أكل الشعير ولا بر العويل)

(أكل التمر بالنظر)

(أقل بصلة تنزل الدمعة)

(ألف كوز ولا الفرازة)

(الله لا يرجع الغلا ولا كياله)

(اللى غيطه على باب داره هنياله)

(اللى مالوش غرض يعجن يقعد ست أيام ينخل)

(اللى ما يرضى بالخوخ يرضى بشرابه)

(ازرع ابن آدم يقلعك)

(اللى تزرعه تقلعه)

(اللى ما يعرفش يقول عدس)

(اللى ما ينام فى جرنه يستلف قوته)

(اللى يبيع الطور ما ينقيش قراده)

(اللى يحب الكمون يتمرغ فى ترابه)

(اللى يحرس مقاته ياكل خيار)

(اللى يريحك م التوم قلة آكله)

(اللى يزرع ما يخافش من العصفور)

(اللى يطلع للبلح يا ينزل يا يقع يموت)

(اللى يعفر تعافير بتيجى على دماغه)

(اللى يعمل نفسه نخاله تبعتره الفراخ)

(اللى يغزل كل يوم مية يعمل فى السنة زعبوط ودفيه)

(اللى ينوى على حرق الأجران ياخده ربنا فى الفريك)

(إن زعقت الكركية ارم الحب وعلىّ)

(إن سبقك جارك بالحرت اسبقه بالمحاباة)

(إن سلم المارس من الحارس فضل من الله)

(إن طلع من الخشب ماشة يطلع من الفلاح باشا)

ومثله:

(عمر الفلاح ان فلح)

وهو مثل أنبته فى تربتنا الاستعمار الذى أوهمنا أننا لا نصلح الا زراعا ولا تصلح أرضنا الا للزراعة حتى إذا قر فى نفوسنا هذا الوهم قديما؛ راح يحط من الفلاحة والفلاحين حتى يفقدهم ثقتهم بنفوسهم لتنعقد رءوسهم بالأرض فلا تتطلع إلى السماء تظل نظرتهم إلى تحت فلا تهفو إلى أمام ولا تشرئب إلى فوق.

ولكن هيهات.. إن هذا المثل النازل ينسخه ويستعلى عليه المثل الصاعد القائل:

(فلاح مكفى سلطان مخفى)

ويتصل بهذا المثل أيضا قولهم:

(إن فاتتك الوسية اتمرغ فى ترابها)

كما يتصل بأمثلة الزراعة:

(إن فاتك لبن الكنسوز عليك بلبن الكوز)

(إن كان زرعك اتسوى بادر بحصده)

(إن كلت الرمان افرد حجرك وإن كلت البطيخ لم هدومك)

(إن مات أبوك وأنت صغير عليك بزرع الباقى شعير)

(إن نطرت ع السلاح يا سعد الفلاح)

(آهى أرض سودة والطاعم الله)

(ايش لك فى الحبوب ياجعبوب)

(بدال ما نقول دبيه نقول قدح شعير)

(البركة تحت الفلكة)

(البطيخة القرعة لبها كتير)

(البطيخة ما تكبرش إلا فى بيتها)

(بطينه ولا غسيل البرك)

(بلوه على علوه)

وقد اعتبروا العلوة بلوه لما ألفوا من السهل المنبسط أمامهم...

(بنت الحراتة تطلع دراسة)

(بالوعد اسقيك يا كمون)

(بين اللبة واللبة أربعين يوم)

(الزرع أخضر والناس أخبر)

(الزرع آن ما غنى ستر)

(الزرع زى الأجاويد يشيل بعضه)

(الزرع يصدقك ما تصدقوش)

(زرعت سجرة لو كان وسقتها بمية ياريت طرحت ما يجيش منه)

(زى الجمل اللى يحرته يبطه)

(زى الجميز كلامه يفمْ ع القلب)

(زى جندى المقاتة يخوف من بعيد)

(زى الشعير كتر دبكة وقلة بركة)

(زى غيط الكرمب كله روس)

(زى القرع يمد برا)

(زى قواديس الساقية المليان يكب ع الفارغ)

(زى الملانة منفوخ على الفاضى)

(زى الهلوك لا تبن ولا غلة)

(زى الورد كله منافع)

(السباخ زرع الاهبل)

(سبسب القرع وجا خيره)

(السجرة اللى تضلل عليك ما تدعيش عليها بالقطع

(سجرة البامية ما يصحش منها أوتاد)

ومثله:

(ممر الغاب ما يصح منه أوتاد)

.يح عند العرمة)

ـن بمنجلك)

ميز)

(القمح يلور ويجى الطاحون)

(كل مية بدرى لما يخيب بدرى)

(لا بايده ولا بالمنجل)

وقد سجلت الأمثلة الزراعية المجتمع الزراعى، فى صفاته وأخلاقه ونفسيته ومنطقة ومعاملاته وإعتقاداته. فحب الأرض وخير الزراعة؛ وكفاؤها.. والاعتزاز بالزرع (الزرع إن ما غنى ستر)، (الزرع زى الأجايد يشيل بعضه).

ومن الأخلاق الزراعية حب التكبير (كل مية بدرى لما يخيب بدرى).. وتفضيل الكيف علىَ الكم (قل م الأرض واخدم..) ولعن القحط وحمد الغنى.. وفيهم مغامرة (اللى يزرع ما يخافش من العصفور).

ومن صفات العمل الاعتماد على النفس والكدح

وعدم الاستهانة والإيقان بأن الجزاء على قدر العمل وأن لكل امرىء ما سعى.

ومع هذا الإيمان بالسعى فيهم قدرية (أهى الأرض سودة والطاعم الله).

ومن الصفات الاجتماعية عدم الفضول والسخرية من الادعاء والرضا والقناعة.

ومن الصفات النفسية والخلقية صون النفس والترفع عن

الدنايا والاعتداد والوفاء (السجرة اللى تضلل عليك ما تدعيش عليها بالقطع.)

ومن أخلاق المعاملات تقديم الاتفاق.

(الشرط عند التقاوى يريح عند العرمة)

وتصور الأمثلة الزراعية طرق الزراعة ومواعيدها.

وهذه الدلالات الاجتماعية أبرزها الفنان الشعبى مستعينا بخصائص الزراعة كما استعان في الأمثلة النيلية بخصائص النهر على التعبير.

وصلة الأمثلة الزراعية بالنيل هى صلة الأثر بالمؤثر والعمل بالصانع. صلة معنوية أكثر منها صلة تعبيرية.

والفنان الشعبى فى الأمثلة الزراعية؛ تشبيهاته واستعاراته ضمنية. وقد يستتسر المعنى فيهاأحيانا ولو على القارىء العجلان (القمح يدور ويجى الطاحون) ومن هنا كانت الأمثلة أصعب مثلا من الأغانى الشعبية لأن السعيد مُتخفِّفٌ، خفيف اللفظ والعبارة أما الأمثال فهى عصارة تجارب وسنين. ومن ثم فهى أغنى فى المعنى واللفظ وأعمق فى الغرض وأكثر تركيبا فى الصورة.

ويلاحظ أن الفنان الشعبى يعتمد كثيرا على الكناية خاصة حين يسخر (اللى ما يعرفش يقول عدس). أو حين يريد التعجيز

(اضرب الأرض تطرح بطيخ).

والأمثلة الزراعية فيها صور يقوم بعضها على السخرية مثل قولهم (زى خيال المقاتة يخوِّف من بعيد) ويقوم البعض الآخر على الملاحظة الجادة مثل قولهم (زى قواديس الساقية المليان يكب ع الفاضى).

والصورة فى الأمثلة الزراعية غالبا مركبة (اللى ما يروح الكوم ويتعفر لما يروح الحلة يتحسر) أو قولهم.

(أردب ما هو لك ما تحضر كيله.. تتغبر دقنك؛ وتتعب فى شيله).

ومحاولة السجع فى الأمثلة الزراعية أوضح منها فى الأمثلة النيلية (ان زعقت الكركية ارم الحب وعلىّ)،

(ان سلم المارس من الحارس فضل من الله)؛ (ان فاتك لبن الكتوز عليك بلبن الكوز)، (إن نطرت ع السلاح؛ يا سعد الفلاح).

ولعل السر فى هذا؛ إن الزارع حياته أكثر استقرارا وأضمن رزقا وأدعى إلى التأنى والروية فى القول والعمل.

أما الملاح والصياد؛ فكلاهما حياته تكيفها المصادفة واللحظة الراهنة إلى حد بعيد. وهما فى صراع قاس مع النهر والريح من أجل لقمة العيش – فليس عندهما فرصة للتأمل أو

التفنن الذى يحتشد له أصحابه.

فـفـلاحـونا يرون الطين العـالق بمـائه نعـمـة تقـتنى، وشـرابا يحتسى ومنفعة تُبْتغَى، «فكل ماء حسن كالنيل الذى يأتى منه».

وإذا بعد بأحدهم مسكنه عنه فإنه يلمحه من بعيد ولو خيطا أبيض يلمع على مدى الطرف؛ وإذا حـالت بينه وبينه مـسـافـة يشميمه فى الحديث، ويستأنفه فى الزرع، ويستعين بخيره فى الضر فكل مـا خـرج من بطن الأرض ودب على ظهرها رسـائل نعمة من النهر إليه، ومظاهر عطف منه عليه.. إن حب النيل فى دمه.. حبه فى دمه حقيقة لا مجازا، فماؤه يرويه وخيره يغذيه ووفره يغنيه..

فتفيض حيويتهم معه.. ويهتز كيانهم من هزة النبات على ضفافه فيتزوجون ويصحون ولو بالايحاء..

وتتجه إليه الأمهات المصريات فى الريف طبيبا لا يخيب له دواء. كيف وقد لُقنا صغارا أغرارا أنه أكسير الحياة؟.. يحملن مخلصات فلذاتهن إليه يلقون فيه ما تسره إليهم الوالدات تبركا به وتيمنا باقباله الدائم أملا فى أن يشفى من الأكباد الساعية إليه المريض، ويبرئ المعتل ويملأ النحيف وهكذا إذا تغلغل الحب؛ تحول إلى عقيدة تتجمع حولها مع الزمن الخرافات.

ويحتضر الفلاح فينسى الدنيا بما جمعت وينسى فيها دنياه

الخاصة بما وعت، وينسى معه أهله فى غمرة الأسى عليه.. ولكن الجميع يتذكرون النهر الخالد.. يتذكرون النيل يهدى للمرة الأخيرة إلى مريضهم المشفى (جرعة أخيرة من الماء الحى).

فى جرعة منه عزاء؛ وفى جرعة منه كفاء تهون على المريض وداع الحياة أو وداع الباقى منها ما دام قد ظفر قبل الرحيل ببضعة عزيزة. جرعة من ماء النيل.

وتحس الفلاحة آلام الوضع فلا تقعدها الآلام عن السعى إليه لتنال قبضة من الحمأ وتبتلعها أثناء الولادة.. لتظفر بوضع سعيد.

وفضل الشعر يلقى فيه ليقبل الشعر مع موجه بهذا، فى رأيهم، يطول ويغزر.

ووليدنا يجمعون له من غلاته سبعة أنواع فى كيس يعلق فى ملابسه من تيامنهم به وكأنهم يحصنون الحياة الجديدة بالخصب والخير من صنعه.

وهناك أمثلة التقويم المصرى، وكل شهر من شهوره يطلق العامة عليه مثلا، وتعتبر هذه الشهور عند الأقباط (قواعد المعرفة الزراعية).

(توت رى ولا فوت) أى إما أن تسارع إلى رى أرضك أو تبطئ فيفوتك الفيضان. (بشنس يكنس الأرض كنس) اشارة

إلى أنه الوقت الذى ينبغى أن تصفى فيه الأجران.

(برمهات اطلع الغيط وهات)

(بابه خش واقفل الدرابة)

(هاتور أبو الدهب المنتور)

ويفسر الأستاذ محرم كمال الصلة بين أسماء شهور التقويم المصرى وبين اللغة المصرية القديمة فشهر (توت) معناه كما هو ظاهر «شهر الاله توت أو تحوت» وتحوت هو اله السحر والحكمة والعلوم عند قدماء المصريين. أما (بابه) الذى يجب أن «تدخل فيه وتقفل الدرابة» فمعنى اسمه.. شهر مدينة (أبه) أى مدينة الأقصر. أما شهر (هاتر) «أبو الدهب المنتور» فمعناه «شهر الالهة هاتور» وهاتور هى آلهة الحب والرقص والموسيقى عند الفراعنة؛ أما (كيهك) اللى فيه صباحك مساك فمعناه «عيد اجتماع الارواح» و(طوبة) «اللى تخلى العجوزة كركوبة» معناه «شهر القمح أو الحنطة» أما (أمشير) فهو شهر الاله (مشير) آله الريح والعواصف عند الفراعنة. فكأن العوام لم يخطئوا حين لقبوا (أمشير) بأبى الزعابيب الكتير. (وبرمهات) معنى اسمه شهر الملك (آمنحتب) و (برمودة) معناه شهر الالهة (رنوده) الهة الحصاد والمحصول عند الفراعنة.

أما (بشنس) فمعناه.. شهر الاله (خنس) أحد آلهة الفراعنة

(وبؤونة) معناه.. عيد وادى الملوك.

أما (أبيب) فأصله (أبيبى) ومعناه: عيد الالهة (أبيبى). و(مسرى) وأصلها مسرى أيضا ومعناها: شهر ولادة الاله (رع) (اله الشمس عند المصريين القدماء).

وإذا كان اللغز أو (الفزورة) لونا من ألوانا الذكاء وصورة من صور الفن يمارسه الشعب إذا تفكه أو طرب فإنها كفن شعبى استوحت النيل وما صنع من زروع وعيون.

عدى البحر ولا تبلش — اللبن —

مركب جايه من بعيد *مليانه* عبيد — الباذنجان —

واللغزان يمثلان حركة فى النهر وحياة.

الفصل السابع

النيل والموالد الشعبية

وفن آخر من الفنون الشعبية يتصل بالنيل حيث تتعانق اعتقادات الشعب منذ القدم حول النيل ذلك هو فن الموالد.. إن مصر القديمة والحديثة لتلتقيان في بعض الموالد الشعبية.. فقد لاحظ Mepherson أن الشعب في امبابة يحتفل بمولد الشيخ اسماعيل الامبابى فى العاشر من بؤونة الموافق ١٦ يونية وهو اليوم الذى اعتبر قدماء المضريين أن دمعة إيزيس نزلت فى ذلك الوقت وذلك المكان فى نهر أوزوريس أى النيل. وقد تسرب هذا الزعم عبر القرون إلى يومنا هذا ليتمثل عند النصارى والمسلمين فيما يسمونه (ليلة النقطة). ولأمر ما يسعى كل من يحجون إلى زواية سيدى اسماعيل الامبابى إلى شواطئ النيل المقابلة للجزيرة حوالى أواخر شهر الفيضان الثانى.

وكما كان عيد إيزيس فى زروق.. فإن مظهر الاحتفال بمولد الامبابى، السباحة فى النهر (بالفلوكة) والزوارق البخارية ...

وفى الصعيد كانت تحتفل مدينة (طيبة) بعيد الاله آمون السنوى حيث كانت تخرج السفن من المعبد وهى تحمل تماثيل الالة المقدسة؛ ورموزه الخفية، فتجرى فى مياه البحيرة المقدسة

يحيط بها كهنة الاله. وحملة المشاعل والبخور وهم ينشدون أغانيهم. ويرأس المهرجان الملك الذى يصاحب الاله آمون وزوجته موت وابنهما خنسو فى رحلتهم على النيل. والشعب من حولهم قد امتلأ حماسة وحمية يتهلل فرحا، والنبلاء يعتلون عرباتهم والجنود تتابع صفوفهم وتتوالى، والاعلام والبنود عسكرية ودينية، ترتفع وتتماوج على حين يرقص الزنوج فتصدر عن النواقيس الصغيرة المعلقة إلى رقابهم رنين جلجلة خفيفة ويزيد المنظر عجبا ما يقوم به المهرجان واللاعبون من حركات القفز والنط متفقة ومنسجمة مع أصوات الجلاجل المقدسة التى تحركها الكاهنات فى أيديهن. وهكذا يتحرك الموكب بطيئا متمهِّلا يغمره فيض من البهجة والرسور حتى يصل إلى ضواحى معبد الاقصر ويسير بين صفوف من التجار الذين كدسوا فواكههم وخضرهم ولحومهم؛ ثم تشق القوارب الصغيرة المقدسة طريقها داخل المعبد فتقدم لها القرابين العظيمة ويدخل الملك إلي الهيكل فيطلق البخور ويتعبد إلى التماثيل الموضوعة فيه. فإذا تم لهم هذا فثمة فترة يقضيها الجميع فى الراحة. فإذا استراح عاد الموكب بنظامه السابق وسارت السفينة الكبيرة بالآلهة فى طريق العودة إلى أن تصل إلى الكرنك. وهنا يكون الآلهة قد استراحوا واطمأنوا إلى أن كل

شئ فى بلدتهم يسير على ما يرام فيدخلون إلى هياكلهم آمنين مطمئنين.

وقد سجل معبد الأقصر هذا كله على جدرانه بالرسوم والنقوش. ومن يراها اليوم ثم يشاهد مهرجان أبى الحجاج لا يعز عليه أن يلمح التشابه العجيب بين المهرجانين جملة وتفصيلا.. ولأمر ما شُيِّدَ مقام أبى الحجاج ومسجده على ركن من فناء معبد الأقصر. وليس الغريب هو وجود مسجد لسيدى (يوسف أبو الحجاج) بالأقصر، ولكن الغريب هو أن يبنى هذا المسجد على رُكْن عال من معبد الاله آمون بالأقصر، وأن يضم هذا المسجد إلى أجزائه ساحة يوضع فيها قارب أبى الحجاج و سفينته، وأن يكون حلول سيدى أبى الحجاج بمعبد آمون الذى انتزعه منه قد جعله خليفة له يرث عنه ماله من صفات وما اشتهر به من مناقب؛ وما عليه من واجبات وماله من حقوق وعادات وكما كان الاله آمون فى زمن الفراعنة يخرج فى احتفال مهيب من معبده مرة فى العام فى سفينته المقدسة فيطوف فى أرجاء مدينته التى يتولاها بحمايته ورعايته فإن سيدى أبا الحجاج يخرج هو أيضا مرة فى كل عام فى اليوم الرابع عشر من شهر شعبان المكرم فيطوف فى مدينته المحبوبة (الأقصر) فى احتفال يتضمن أكبر عيد محلى يقام فى هذه البلدة.

يطوف مهرجان أبى الحجاج يحمل نفس السمات القديمة.. نفس المظاهر القديمة.. نفس الطباع... نفس المكان.. نفس التفاصيل.

فإذا حل الموكب أخرج القارب (ذو الألوان) ثم وضع على عربة ذات أربع عجلات وقد غطى هذا كله بقماش ملون هو الذى كان يُغطِّى مقبرة أبى الحجاج. أما الأقمشة التى تغطى المقابر الخمس الباقية فإنها تفرش على ظهور خمسة جمال تكون قد اتخذت زخرفها وازينت. أما من يمتطى ظهور هذه الجمال فهم أعضاء أسرة الحجاجية.

وهكذا يكتمل الجمع عند المسلة التى تقوم أمام معبد الأقصر، أى عند ميدان الساحة وفقا للتقاليد، ويتكون الجمع من اثنين من ضباط البوليس وعشرة من رجال السوارى وخمسين من جنود المشاة يلى ذلك الجمال الخمسة مزادنة بأجمل زخرف وزينة وقد غطيت ظهورهم بالأقمشة الملونة التى كانت تغطى قبور الأولياء؛ ثم هى تحرك رءوسها ورقابها مزهوة فتدق الأجراس الصغيرة المشدودة إليها وتتيه رءوسها بريش جميل عَلِقَ عليها. على حين يهلل الرجال الذين امتطوا ظهور الجمال مكبِّرين بلا إله إلا الله، الله أكبر؛ الله أكبر، الله أكبر؛ ويرتفع صوت مؤذن المسجد داعيا الناس إلى الصلاة على النبى؛ وحمد

الله والثناء عليه...

ويتلو ذلك مشايخ الطرق وأعضاء أسرة أبى الحجاج وقد حمل كل فريق منهم علما ذا ألوان متعددة وكلهم ينشدون أناشيدهم فى الاشادة بذكر أبى الحجاج ومسجده وفى وسط جبلة الأناشيد والتصفيق والتهليل والتكبير وإطلاق البنادق يتقدم قارب الولى فى هدوء وتمهل تحيط به الأعلام ويجتاز هذا الجمع الحاشد الذى يبلغ منه الفرح مبلغا يفوق حد الوصف حتى لتراه يندفع إلى القارب يحاول لمسه للتبرك به وبقداسته.

وهكذا.. يتقدم الموكب ويسير متمهلا تارة ومتوقفا تارة أخرى.. يعترضه فريق من الناس من حين إلى حين وهم يرقصون أو يذكرون الله.. ثم هو يتوقف عند كل مقام ولى من الأولياء ليقرأ الناس الفاتحة ويثنون على الله وعلى وليهم أبى الحجاج الذى يزور زملاءه الأولياء.

القارب ـ معبد الأقصر ـ الجنود ـ الأعلام ـ الأناشيد ـ الشعب ـ المبتهج التبرك بالقارب حتى الأجراس الصغيرة بلغت سمع مصر الحديثة على بعد الزمن وطول الأحقاب.. الزمن العداء الذى لحقت به خطى موكب أمون المتمهلة.. لم يخلفها بل واكبته إلى مصر الحديثة فقارب الحجاج يتقدم (فى هدوء وتمهل).. تماما كما كان يفعل قارب آمون..

أعياد ومراسم تمتد عبر الزمن من مصر القديمة لتتواصل مع أعياد مصر الحديثة التى تبدو إمتدادا لها وتتخذ فى الحديث كما اتخذت فى القديم النيل وشواطئه وسفنه مسرحا لها ومجالا.

ومثل هذه الاعتقادات والاحتفالات تتداخل فى فكرة الشعب عن الغيبيات فنرى الجبرتى يحكى لنا فى تاريخه أنه فى يوم الأربعاء رابع وعشرين الحجة آخر سنة سبع وأربعين ومائة وألف أشيع فى الناس بمصر بأن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرين الحجة وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضا ويقول الإنسان لرفيقه بقى من عمرنا يومان وخرج كثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمتنزهات يقول بعضهم لبعضهم دعونا نعمل حظا ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة وطلع أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى البحر.

وصنيعهم هذا يذكرنا بعيد الغطاس عند الأقباط ولعله صدى له... وهناك ظاهرة تراها العين وهى تجول فى نواحى مصر هى أن المصلى فى كل قرية من قرى مصر بلا استثناء تقوم على جرف النيل أو الترعة أو المصرف، مصلى قوائمها من جذوع النخل وسقفها من الجريد هل الغرض التماس الوضوء؟ ولكن

الوضوء يتيسر من أى قناة فى الحقل ثم الصلاة على الأرض أو العشب.

ماذا يعنى هذا وما دلالته.. لقد أصبحت العبادة لله وحده ولكننا برواسب الماضى أو نزوع الحاضر إلى النيل أو اعتزاز الحى بمقومات حياته نتجه إلى النيل نقيم على شاطئه الصلاة.. لقد وهبنا الله النيل والزروع والنخيل والنعمة التى نعيش فيها فاكهين فنحن نتعبد له. على شاطىء النهر، على مرأى من النخيل والحقول.

هل هو السعى إلى المنعم فى داره. إن الله يقبل الصلاة فى كل مكان فلماذا نتجه بوعى منا أو بغير وعى إلى النيل؟.

النيل شعار على أوراق النقد فى أيامنا هذه. إن المال نعمة كبرى فهل نطبع عليها بوعى منا أو بغير وعى؛ صورة رب النعمة واهب الخيرات...

والشعب المصرى يعتقد أن النيل طُهْرٌ كله ومن يعبره يتطهَّر.

وهنا تلتقى الاعتقادات الشعبية بالاعتقادات القديمة فقد سبق أن أشرنا إلى قصة يوحنا عند الحديث عن العصر القبطى وكيف أنها امتداد لنظائر لها فى مصر القديمة.

أما فى السلام فقد روى عن أبى هريرة: أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال: يا رسول الله أنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من

الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر فقال رسول الله ﷺ (هو الطهور ماؤه الحل ميتته».

وحين أراد الفنان الشعبي المبالغة في ذم اللئام والتعريض بهم نفى عنهم الطهر وأيأسهم منه حتى لو عدوا (البحر).. حتى لو عدوا بحرين.. وينعكس هذا في قولهم:

لو لبست الندل توبين ما يزيد إلا تعاسة

والكلب لو عدى بحرين مجرم وصاحب نجاسة

يقول الأستاذ رشدي صالح...

(لم يزل نظر الفلاحين إلى طهارته (قداسته) ظاهرا في استنكارهم تلويث مائه بالنجاسة وفي قسمهم به كقولهم و «حياة البح الطاهر» وفي نسبتهم الكثير من قصص الجان «جنية البح التي تسكن أعماقه».

وحين عرضت مجلة الفولكلور العالمية للاعتقادات المصرية.

جاء تحت هذا العنوان:

(وقال خادمي جاد إن هناك عفاريت كثيرة في موطنه من مصر على هيئة رجال ونساء وجمال وكلاب وهم أحياء وإذا قابلت كلبا على التلال في الصحراء هنا فإن من المحتمل أن يكون عفريتا...

وهناك نوع آخر يعيش في النهر ويشبه سمكة كبيرة برأس

آدمى وأرجل كأرجل الحصان وتأكل النار).

على أن إسكان البحر وشواطئه بالجن والعفاريت أمر مألوف فى سائر الأنهار قديما وحديثا .

والأساطير الشعبية عن جنيات الماء أو حوريات الماء أو عرائس البحر تتشابه فى اللغات المختلفة وبين الأقوام ففى الأساطير الأغريقية أن جنيات الماء يجذبن الضحية إلى حتفها بالموسقى الساحرة الحلوة، ويتفاوت عددهن فهو مر يقول باثنتين والأغريق فى صورهم يرسمون ثلاثة وهن فى بعض الأحيان يتخذن أشكال الطير أو طيور برءوس نساء أو يكن ملتحيات أو هن نساء لهن أرجل طيور وقد حمل هذا؛ على الاعتقاد أن الجن فى الأصل كانوا أرواح التعساء من الأموات..

والاعتقاد فى خلود الروح قد فجر فى مصر نوعا خاصا من العفاريت يعرف عالميا باسم العفريت المصرى أى ميت بُعث فى صورة شبح. أما النهر نفسه فإن المعتقدات حوله تلتقى عند كثير من أنهار العالم فى الناحية الغيبية، من حيث الجن والعفاريت، ولكنه ينفرد فى ذلك بأنه واقع ملموس، أحس المصريون أثره الجبار فى حياتهم فلم يخلعوا عليه من خرافاتهم التافه أو الغبى إنما أضفوا عليه التقديس وأشاعوا فيه الحركة وتحدثوا عنه بالقول الذى يؤمن بجلال ما يتحدث عنه

ويقدسه. -

وهناك أسطورة تقول إن أوديسيوس سد آذان رجاله بالشمع وثبت نفسه بحبل إلى عمود الشراع حتى يعبر جزيرة الجن الملأى بعظام ضحاياهم، بسلام... وكان أورفيوس أعذب غناء من الجنيات ويقال إن بوتوس Butes رمى بنفسه من السفينة وحاول أن يسبح إليهم ولكن أفروديت أنقذته.. وبعد أن انتصر عليهم أورفيوس في الغناء وفاقهم فيه قفزت الجنيات في البحر وتحورت إلى صخور وقد اعتبرت نابلي وسورنتو؛ ومسينا في أوقات مختلفة، مقرا الجنيات...

الفصل الثامن

النيل ولغة الشعب

وهنا أحسب أن قد آن لنا أن نتكلم عن أثر النيل فى اللغة الشعبية.. وهنا يلوح لنا تعبير قدماء المصريين عن الاتجاه إلى الشمال بخصائص النهر فإذا ذكرنا هذا لمسنا كيف تلتقى مصر القديمة بمصر الحديثة من حيث (نفسية التعبير) هذا التعبير بالذات .. فى الصعيد تهدهد الأمهات الطفل بهذه الترنيمة:

ان بحر يجيب المصرية   وان غرب يجيب الغربية
وان جبِّل يجيب الصعيدية   وان شرَّج يجيب الشرجية
جود جود   جاد على رب الموجود

وقد صنعت بيئة النيل الزراعية ألفاظا وصورا خاصة تصف الجمال فى الأدب وفى ريفنا يشيع هذا الموال:

أنا عندى من الورد فدان ورد يطرح ورد

...

أنا قلت يا ورد بلدك تسمى أيه فى بلاد الغرب

قالت الميه بلدى وجاى الميه أزور وأروض

يوم الزحام ترتوى من حوضها المورود

مع ظبى تركى.. وفى أيده صنعة البارود

قالت (وصف لى) يا جدع ده أنا بالوصال أجود

قلت لها الك شعر يا ورد (يشبه لسلب) جمال

ولما الرأس يا ورد تشبه لرأس يمام

وعندك القورة يا ورد تشبه لهلال شعبان

أما الحواجب يا ورد دول خط م الرحمن

وأما العيون يا ورد يشبه لعيون غزلان

ولما المناخير يا ورد يشبه نبقة من الشام

ولما الحنك يا ورد يشبه لخاتم سليمان

ولما العنق يا ورد يشبه كوز فضة من الدلال

ولما السدر يا ورد يشبه القليون فى المالح

ولما النهود يا ورد يشبه الرمان وهو طارح

ولما الخصر يا ورد يشبه الغزال وهو سارح

ولما البطن طيه لطيه تشبه عجين خمران

ولما السرة يا ورد تشبه فسقية الحمام

ولما القدم قدم غندورة لم عين تراه سارح

يا شبه فدان جلله ومنمقه الفلاح

تبقى تعوزى الصفا والعاشق المرتاح.

يا ورد ماهش كده اديني معى المعاد

أنا عندى من الورد فدان ورد يطرح ورد

وهكذا يجمع الموال الذى يسمونه موال الورد أوصاف الجمال من نواح متعددة فالشعر الذى يشبه (سلب الجمال) والعيون التى تشبه عيون الغزلان يوحي بالصحراء فإذا نزلنا قليلا إلى الأنف وجدناه في الموال يشبه (نبقة من الشام).

ولما الحنك يا ورد يشبه لخاتم سليمان

ولما العنق يا ورد يشبه كوز فضة مع الدلال

ولما السدر يا ورد يشبه الغليون فى المالح

وهكذا نجد الفنان لمح البحر والصحراء واستورد النبق من الشام ولاحظ (كوز) الفضة مع الدلال وتذكر خاتم سليمان وهلال شعبان... وطوف ما طوف وكأنه أحس أنه لم يصل إلى شئ في وصف الجمال المشهود أو لم يوف على الغاية التى يريدها من وصفه فلم يجد أدل على غرضه وأشمل لرغبته فى المبالغة والتحلية والتفويف من هذا التشبيه:

يا شبه فدان جلله ومنمقه الفلاح

ان فدانا ينمقه الفلاح أجمل فى عينه وأغلى فى تقديره من كل جمال عداه فى الواقع مما تضمه الصحراء والشام وغيرهما؛ أو الخيال كذلك الذى ترويه الأساطير عن خاتم سليمان أو تتخيله العين من رؤية هلال شعبان.. شوارد الجمال كلها يجمعها ويزيد عليها هذا التشبيه:

يا شبه قدان جلله ومنمقه الفلاح..

وظاهرة لغوية أخرى تسترعى الالتفات، هى أن اللغة تتأثر بقربها من النيل أو بعدها عنه. فكلما اقتربت من النيل فهناك الشفافية فى اللفظ والألق فى العبارة، وكلما ابتعدت عنه عطلت من الجمال وافتقدت الرواء ونضب ماؤها .. ولكى تتضح المقارنة هنا عمدنا إلى موال بحرى، وموال قبلى؛ وأغنية من مجموعة اليونسكو بمديرية البحيرة أى المنطقة بين الزراعة والصحراء ثم ثلاث مقطوعات.. من أغانى البدو فى الصحراء المصرية وهذا هو الموال البحرى:

لك وجه زى القمر الله يزيدك نور

ولك شفايف تحاكى الورد في البنور

خايف أقول لك تعالى الجنينة تزور تتوه منى

تمشى تهز الفلك تشبه بنات الحور

اللغة هنا سهلة منبسطة خصبة (يزيدك) مترفة (الورد فى البنور) كأرض النيل فى الدلتا...

وهذا موال صعيدى:

بالراحة: *دنا فى باطنى جرح جوا الجوف*	بالراحة
وحسيت عجلى خرج وياه	بالراحة
وهبهب عليا المريسى من الجهتين	بالراحة

وصبحت كيف زرع هفو الشوب والمينا

وجعدت سنة حول لازادن ولا مينا

يا هلترى مركبى ترسيش على المينا

وأمد رجلى وطول البر بالراحة

والموال هنا حار العاطفة كجو النيل فى الصعيد.. فيه ظمأ والتياع كشراقى النيل فى الصعيد وألفاظه جادة صارمة كطبيعة النيل فى الصعيد. وهو لم يفرغ بعد من الصخور والجنادل... جوف ... خرج ... أمد رجلى .. ألفاظ ليس فيها الليونة والطراوة والنعومة والصقل البادى على الورد والبنور والحور تلك الألفاظ المياسة التى طالعتنا فى الموال (البحرى) (وهبهب عليا المريسى من الجهتين بالراحة) أحسب فنان الصعيد لو أبحر وذاق حلاوة العيش فى الدلتا لتسمح لفظه وشف ورفّ وحلت لفظة (هفهف) مكان (هبهب) من الموال.

ولكن هذا الموال الصعيدى يستأثر وحده بالقلب والحس الفنى.. بشجاه ورموزه ودفئه وتهويمه المنعكس فى لفظة (بالراحة) التى يزيدها التكرار راحة.. إنه يأسر بوقدة الحرمان فيه.. الحرمان من كل شئ حتى من الزاد والماء.. يأسر بتمنيه الذى أودعه لفظة (وطول) البر بالراحة...

وهو رغم اللهفة والصدى وحر الشوق يلفه سلام عجيب حبيب من تكرار كلمة (بالراحة) ...

يقول الاستاذ العقاد: (وهو الذى أنكر على مصر القديمة ومصر الاسلامية الشاعرية والشاعر) «منظر واحد يراه فى مصر كل من عرف الصعيد وعاش فى بقايا مصر القديمة بين اقليمى أسيوط وأسوان. وذلك المنظر هو حلقات الانشاد فى الليالى القمراء بين ظلال النخيل.. من شهد تلك الحلقات ومن سمع ذلك الغناء ومن لمس ذلك الجذل المحزون فى قلوب أبناء تلك الأقاليم ومن سمع الأرغول يحن حنينه ويعول اعواله ويستخف فى رزانة ويرزن فى خفة وسهولة؛ ومن أحيا ليلة من ليالى الصيف القمراء بين تلك الظلال على تلك الرمال صعب عيه أن يستمال إلى الدلائل التى تنكر الشاعرية على سليقة المصريين بل من رأى فلاح الصعيد يسرع إلى تسجيل كل حادث فى حياة القرية بالنظر والنشيد. فإذا هو الشاعر وإذا هو الملحن وإذا هو المغنى المنشد عز عليه أن يصدق التواريخ والأسانيد إذا هى قالت له يوما إن هذه النفوس خلو من ملكة الفن محجوبة من وحى القصيد.. ولقد تروعك بين تلك الأغانى الساذجة لمعات كخطف البرق من متعة الحياة وسكر الطبيعة وحنين المجهول يرتفع إلى ذروة الشعر وتومض بين أسمى

الجواهر التى تجلوها قرائح العبقرية والالهام، فتؤمن أن المنجم غنى والمعدن نفيس وأن شعرا هنا مخبوء يستحق أن يُكشف عنه ويستمع إليه».

لست أدرى.. لعل الكاتب سمع موال «بالراحة»

ولما كانت (البحيرة) تمثل المنطقة بين الخصب والصحراء؛ فإن الاستشهاد يمثل منا له دلالته الخاصة.

أحـــبـــابنا اللى جـــفـــونا فُـــــــــضُّـــنا مـــنــهـــم
زى الخـــيـــــاطة الشـــلالة مـــــــــــا ينـشـع منـــهـم
جم يطـلـبــــــوا الصـلح بعـــــد اللى جــــرى منهم
مـــــــعلـهش طب نـصطـلح تـاخــــذ الحـــــرص منهم
يــا لـــلـــى ويـــا لـــيـــل الـــلـــه .. ..
بـعـــت لـك جـــــــــوابـيـن ولـيـــــه مــــــا جـــــاش الرد
يظـهــــــر يا نور العـــــين قـــنســــــاك على حـــــد

لقد بعدنا الآن عن منطقة الخصب الوافر فى الدلتا وبدأت طلائع الجفاف فظهر لفظ الجفاء والحرص والقسوة .. والطبيعة إذا ضنت فى موضع أو أعطت بقدر خلعت طابعها على السكان الذين يصبحون صورة منها فى الحرص إن لم يكن الكزازة.. وغير ملومين ..

أما منطقة الصحراء فقد سجل Ernest Klippel ثلاث مقطوعات من أغانى الحب عند البدو فى صحارى مصر.

ويلاحظ فى المقطوعة الأولى أن العاشق يطلب إلى عمه أن يزوده بقافلة من الجمال المختارة وأن يضع عليها هودجا جميلا وقربة من جلد خروف وبعض الماء وأن يذهب معه إلى قاضى (الصومان) ليسأله عن خبر فتاة رشيد التى استهوت قلبه... ثم يأخذ فى وصفها فإذا ...

ثدياها يشبهان فناجين القهوة
وعنقها يشبه جلد الغزال
وغدائرها يمكن أن تستخدم حزاما للناقة
وعينها كعين الغزال

ويمضى فى هذا الوصف الذى قده من الصحراء حوله؛ بنوقها وخرافها وغزالها ولم ينس المحب فى المقطوعة الثانية أن يضيف إلى هذه المجموعة طير (الصقر) الذى شبه نظرة الحبيبة بنظرته وهو يعلو قمم الجبال وتركزت عيناه

فى المقطوعة الثالثة على الفم واليدين، فإذا ..

فمها كفم الغزالة
مزين بلآلئ بيضاء
وأياديها مزينة بالخضاب
والوشم يشبه الكتابة الجميلة
وشفتاها تشبه المرجان
وذراعاها تتوهج كالسيف المجرد

فالشاعر هنا أو المحب محدود الطاقة محدود النظرة.. محدود التعبير حصيلته كلها جمل وخروف وغزال وصقر.. وإن كان عنده (لآلئ ومرجان) ولكن المحب على الضفاف الخضر عنده حقل من المباهج مما تعكس بعضه فقط المقطوعة التى أوردتها معتمدة على ما سبقها وما يليها من أغانى الزراعة والنيل... أغان ومواويل وقصص وأمثال تتضح بها المقارنة ويتجلى التمايز.. التمايز بين العنق الذى يشبه

(كوز فضة مع الدلال)...

وبين قولهم فى الصحراء...

وعنقها يشبه جلد الغزال

وغدائرها يمكن أن تستخدم حزاما للناقة

هنا أريد التعبير وتجهم كوجه الصحراء ...

غدائر تستخدم حزاما للناقة. تشبيه غليظ يحكم على صاحبه بأنه محدود الخيال، فهو يقد تشبيهاته من أشياء قريبة منه. فلما يذهب بعيدا إلى معنويات من الأخيلة أو الصور.. والجدة والطرافة التى تفتقدها هنا تلمسها عند شاعر الخصب أليس جزءا من البيئة التى يعيش فيها؟ وهى بيئة متجددة. فالماء جار متجدد؛ والزرع ذو ألوان تتعاقب مع مراحل نموه ونضجه والأرض بينما هى درة بيضاء اذ هي عنبرة سوداء؛ اذ هى

زمردة خضراء كما يقول «عبد الله بن عمر» والرسالة المنسوبة إلى عمرو.

ونحن إذا تأملنا الموال البحراوى نجد أن «الشفايف التى تحاكى الورد فى البذور» تشبيه زراعى جديد فقد اعتاد الأدب الكلاسيكى أن يشبه الشفايف بالمرجان..

لأن الأدب وقتئذ كان أدب ملوك وحكام وقصور مقفلة لا طبيعة طلقة.

ولا أحاج هنا بما ورد فى المقطوعة الصحراوية الثالثة من تشبيه الشفتين بالمرجان فتلك أمنية محروم، وحلم محروب عاطل من الغنى؛ بالثروة التى تتمثل عنده فى المرجان وما يشاكله...

ولاحظ أن عاشق الصحراء يفصل فى أجزاء الوجه والجسد، فالعينان ونظرتهما، والفهم والثنايا والشفتان.. والغدائر والعنق؛ واليدان والخضاب والوشم؛ والذراعان وتوهجهما .. كل هذا تأخذه عين العاشق الصحراوى فى محبوبته بينما شاعر الخصب يحتفى بالوجه والشفايف خاصة ثم لا يطول نفسه بعد ذلك بل ينتقل إلى غرضه مباشرة فيلمح على استحياء برغبته فى اصطحاب الحبيب إلى «الجنينة» ولعل السر فى هذا أن شاعر الخصب معتاد على الجمال قد ألفته عينه ككل فالزرع المنبسط

أمامه مساحات واسعة والطير مجموعات كبيرة والشجر صفوف متراصة، والماء نيل كأنه بحر أو هكذا يدعونه. والخير ألوان: منشور موفور سابغ.. ويزيد احساسه بالنعمة أنه شاعر متفتح الحس مرهف الشعور وقد توافر الجمال حوله في كل شيء في السماء والماء وعلى الأرض. بينما في الصحراء المقفرة المتشابهة يتلمس شاعرها مفردا واحدا من الجمال. يلتمس شيئا جزءا لأن الصورة من حوله جرداء فهو يتكثر بالتفاصيل وعنده من الفراغ ما يعينه على هذا. لقد علمته وحشة الصحراء التنقيب عن أى شيء..

إن أى شيء يؤنس وحشته.

ولكن من حق البدوى أيضا أن يقول إن الحياة بالنسبة إليه صخور وجبال ورمال وعواصف ووحوش فمن أين يأتى .. بالورد فى البنور..؟

هذا هو أثر النيل في اللغة، بعد أثره في الحياة والناس.

الفصل التاسع

عروس النيل

عروس النيل أسطورة أترك للدكتور محمد حسين هيكل روايتها وتفنيدها معا...

« فقد زعموا إنه «لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط فقالوا إذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها؛ وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل فيجرى... فقال لهم عمرو بن العاص: إن هذا لا يكون فى الإسلام؛ إن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء. فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين؛ فأجاب عمرو: «قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله؛ وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى». فلما قدم الكتاب على عمرو... وفتح البطاقة إذا فيها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر. أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر؛ وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك». فعرفهم عمرو بهذا الكتاب وبالبطاقة ثم

ألقى البطاقة فى النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم؛ وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها إلا النيل. فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ست عشرة ذراعا فى ليلة واحدة؛ وقطع تلك السُنة القبيحة عن أهل مصر»

هذه رواية عروس النيل كما أثبتها المؤرخون المسلمون. وقد نقلنا نصها هذا عن كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى. ولسنا نتردد لحظة فى نفيها من أولها إلى آخرها. ولو لم يقم الدليل العلمى على هذا النفى لكفانا أن نستند فيه إلى ما بلغه الفراعنة من علم وحضارة، وإلى أن انتشار المسيحية بين المصريين فى عهد الرومان لم يكن ليسوغ قيام بدعة كهذه البدعة. وقد ذهب بتلر هذا المذهب فنفى القصة فى العهد المسيحى؛ ثم قال: «ويلوح أن لهذه القصة أصلا فى التاريخ، فقد كان من عادة أهل السودان حقيقة فى أقصى أنحائه الجنوبية أن تلقى قبائله الهمج فى النهر بفتاة عذراء فى زينة الزفاف. ولعل عادة كهذه كانت متبعة فى بعض جهات الهمج فى بلاد النوبة التى فتحها الإسلام فى أول أمره. ولعل عادة التضحية بفتاة عذراء ترمى فى النهر كانت مُتّبعة فى مصر فى أيام الفراعنة.، وأنه من المحقّق أن الاحتفال بالنيل والدعاء من

أجل زيادته وفيضه كانت تقع فيه أعمال خرافية كثيرة تخلفت من العصور القديمة؛ ولكنها لم يكن بها شيء مثل ذلك الجرم من التضحية بالعذراء... فمن أكذب الكذب أن يتهم المسيحيون بأنهم حافظوا على مثل هذه العادة الشنيعة التى لا ترضى عنها ديانتهم ولا تقرها ملتهم..

ومن عجب أن يدور بخاطر بتلر أن مثل هذه العادة الشنيعة ربما كانت متبعة فى مصر فى عهد الفراعنة، وأن يثور هذه الثورة العنيفة لاتهام قبط مصر المسيحيين بأنهم حافظوا عليها من بعد. فلو أن الفراعنة اتبعوها فى أيامهم لبقيت من بعدهم ولما كان على المسيحيين تثريب فى اتباعها. فما أكثر ما انتقل من عادات الفراعنة إلى العهد المسيحى وإلى العهد الإسلامى، مما لا يزال بعضه باقيا إلى عهدنا الحاضر.. ولا عذر لبتلر عن تسامحه فى اتهام الفراعنة وثورته فى نفى التهمة عن المسيحيين؛ إلا ما ذكرنا من قبل من حماسة الإنسان لديانته. على أن العلم قد أثبت من بعد أنه لم يحدث قط أن ألقيت عذراء فى النيل حثاً على الفيضان، وإن نفى جماعة من العلماء هذا القول أيضا.

ولو صح أن الفراعنة أو غير الفراعنة كانوا يلقون فى النيل تمثالا من الخشب ابتهالا وابتهاجا بالفيضان لما طعن ذلك على

علمهم وحكمتهم ولما زاد على أنه نوع من الخرافة يستريح إليه السواد فلا يعترضه العقلاء والحكماء..

هذا هو ما يستخلص من تاريخ مصر الفرعونية.

وقد أردت زيادة تمحيصه؛ فطلبت إلى العالم الأثرى الأستاذ سليم حسن أن يمدنى بعلمه ورأيه، فكان مما أثبته أن ما قيل عن الوثيقة التى بعث بها عمر بن الخطاب فألقيت فى النيل ليفيض لا يزيد؛ إن صح؛ على أنه كان مجاراة من الخليفة للمصريين فى عادة لهم لا ضرر من مجاراتهم فيها، فقد كان من عادة الكهنة المصريين؛ ومن عادة بعض ملوكهم، أن يقيموا لإله النيل احتفالا فى بدء الانقلاب الصيفى يقربون فيه للإله ثورا وأوزة وقرابين أخرى من الخبز وغيره؛ ثم يلقون فى النيل وثيقة مختومة من ورق البردى مخطوطا عليها أمر للنيل أن يجرى فى فيضان معتدل يكفل للبلاد الخير والرخاء. وكان هذا الاحتفال يقام فى اليوم الذى تصل فيه مياه النيل الصيفية قادمة من أسوان إلى بلدة السلسلة. مبشرة بفيضان عظيم...

والظاهر أن المسيحيين؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون للنيل إلها؛ ثم بقيت تلقى فى النيل ليجرى فيضانه فتعم البلاد خيراته. فلما دخل العرب مصر كانت الوثيقة الإسلامية الأولى هى هذه التى يعزوها المؤرخون إلى عمر بن الخطاب، والتى يأمر النيل فيها

بأن يجرى كما كان يأمره الأمير الروماني في العهد المسيحي؛ وكما كان يأمره الكهنة وبعض الملوك في عهد الفراعنة.

أما قصة عروس النيل كما رويت فخرافة تستند إلى أسطورة روجها المؤرخ الإغريقي بلوتارك، خلاصتها أن «أجبتوس» ملك مصر استلهم الوحي ليهديه السبيل لاتقاء كوارث نزلت بالبلاد؛ فنصحه أن يضحي بابنته بأن يلقيها في النيل ففعل، ثم إنه ناء بالرزء الذي ألم به؛ فألقى بنفسه في النيل فهلك كما هلكت ابنته. وهذه الخرافة التي روجها بعض كتاب الإغريق واللاتين من بعد بلوتارك لم يرد لها ذكر في الكتابات المصرية؛ وهي مع ذلك مصدر الأسطورة التي ذاعت في الناس قرونا، ونسج حولها الخيال من فنون الرواية والقصص ما جعل كثيرين يتوهمونها حقيقة حدثت بالفعل وأنها كانت تتكرر في كل عام...

أم ترى نسج الخيال أسطورة عروس النيل حول ما جاء في ورقة هاريس البردية التي ترجع إلى عهد «رمسيس» الثالث فيما بين سنة ١١٩٨ وسنة ١١٦٧ قبل الميلاد؟ إن صح ذلك فهو الدليل على أن الإنسانية كثيرا ما تؤمن بأساطير لا أصل لها في الحياة وإنما زيفها وزينها خيال الكتاب وأرباب الفن. فليس في ورقة هاريس ذكر لعروس عذراء تزين وتلقى في النيل؛ وإنما جاء فيها أنه كان على امتداد النيل ما يزيد على مائة مرساة بين كل

مرساة والتى تليها نحو سبعة أميال، وفى كل مرساة محراب لحابى اله النيل؛ يرعاه كاهن يتناول من راكبى النيل أطعمة يقدمونها قرابين لحابى؛ وكان لكل محراب لهم فيه طعامهم ولباسهم، وكان يوضع فى كل محراب طاقة من الزهر تجدد فى كل يوم؛ وستة تماثيل من خشب الجميز لحابى اله النيل، وستة تماثيل أخرى من الخشب نفسه للالهة «رببيت» زوجة النيل. هذا عدا تماثيل أخرى للاله حابى مصنوعة من الذهب والفضة والقصدير والأحجار المصرية المختلفة الأنواع كالمرمر واللزورد والزمرد والبلور الطبيعى وأساور من ذهب وفضة. وكانت هذه التماثيل كلها تلقى فى النيل يوم الاحتفال بعيد حابى فى بداءة الإنقلاب الصيفى ويؤتى بدلها بجديد غيرها يقام فى تلك المحاريب؛ إلى أن يحل العيد بعد عام فتلقى فى النهر قبيل فيضانه، ثم يؤتى فى المحاريب بتماثيل جديدة فى كل عام.

ترى هل استمد الخيال قصة عروس النيل من هذه التماثيل التى كانت تلقى فى النهر، فنفخ الحياة فى خشب الجميز وفى غيره من المواد التى كانت تصنع التماثيل منها؟ وهل الإلهة (رببيت) زوجة النيل هى التى أمدت الخيال بفكرة العروس العذراء النابضة بالحياة؟ أيا كان الأمر فالقصة كما ترى أسطورة من أولها إلى آخرها زينها الوهم؛ ثم خلع القدم على

الوهم صورة الحقيقة، فإذا للنيل عروس من بنات حواء تلقى فيه في ريعان شبابها وفي ثياب زينتها؛ وإذا المؤرخون يتناقلون هذه الأسطورة على أنها حقيقة بقيت على الحياة القرون الطوال، وما أدرى أيقضى على هذه الأسطورة بعد أن فندها المؤرخون وفندها الأستاذ سليم حسن هذا التفنيد العلمي الدقيق، أم يبقى من الناس من يذكرها ويتوهم أنها كانت حقيقة في يوم من الأيام؟!

وأرجح ما أشار إليه الدكتور هيكل من عرائس الطمي في السودان كان ركيزة لأساطير وأخيلة شعبية ترامت إلى العرب فنسجوا بدورهم حولها قصصا فيه صور.

لقد سمعها العرب كما سمعناها نحن لأنها أسطورة حية وإن تكن لا أساس لها من الصحة.

وقد أشار لودفيج أيضا إلى أسطورة زواج النهر من الأرض السمراء في حفل وفائه؛ وأن فرعون كان يحاول استعطافه بالهدايا واستمالته بالسحر ليحمله على الزيادة.

وقصة العروس هذه التي يتشبث بها لودفيج يعدها الدكتور أحمد بدوى «فرية» أكبر الظن أن يكون مردها إلى سوء الفهم، وهي لا يمكن أن تكون صحيحة لأمرين:

الأول: أن تاريخ فرعون الطويل لم يشر مطلقا رغم زعم

الزاعمين إلى شيء من تلك الضحايا البشرية.

والثاني: أن الوقت الذى نسبت إليه تلك القصة كانت مصر تدين فيه دينا سماويا سمحا، قوامه العدل والرحمة والبر بالإنسانية افتداها المسيح من الشرور والآثام والعذاب والموت بحياته الغالية.

وقد أضاف الأستاذ عبد القادر حمزة أسباباً أخرى أصيلة منها أن المصريين كانوا يسجلون فى سجلات خاصة درجات علوه وانخفاضه وليس فى هذه السجلات ذكر للعروس. كما خلا من ذكرها ما دونوه عن سنى المجاعة ولو أن هناك عروسا لوجب أن تذكر حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته؛ أو فى خلال ذكرهم تلك السنين، أو فى وصفهم للاحتفالات الدينية التى كانت تقام للنيل؛ أو القصائد والأغانى التى لهجت به.

(على أن كلمة «عروس النيل» ليست اختراعا محضا؛ بل هى كلمة كان المصريون يقولونها ويريدون منها (أرض مصر)، وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض كما يدخل الرجل على عروسه ولا يبعد أن يكون هذه المعنى المجازى هو الذى أدى مع الزمن إلى توهم أن هناك عروسا كانت تلقى).

وهناك سبب آخر قوى قال به الأستاذ عبد القادر حمزة

يتصل بابن عبد الحكم ويتعلق بروايته التى بقى «لا يجرى قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر هى بؤونة وأبيب ومسرى» فهل.. يمكن أن يبقى فى مصر أثر للحياة إذا جفّ ما ، النيل فلم يجر قليلا ولا كثيرا ثلاثة أشهر متوالية؟ وهل من المعقول أن يجرى النيل بعد ذلك دفعة واحدة، وفى ليلة واحدة على أثر إلقاء البطاقة، ستة عشر ذراعا بعد أن كان جافا لا يجرى قليلا ولا كثيرا؟؟).

والعروس أو الجارية التى تلقى فى النيل على حد تعبيرهم «فرية» سبقهم إلى القول بها هيرودوت فيما ألصقه بمصر من المفتريات.. وهى تلج هذا الفصل من باب الخرافات أو تدخله من نافذة الأساطير...

وقصة العروس طالعتنى فى المكتبة العربية فى أكثر من كتاب... وهو اتفاق له أكثر من دلالة... إنه أمارة تصديق... أو علامة نقل.

وبعد.. فإن هذا التيه من الأقوال والأخيلة والأوهام قد هام فيه العرب، وضرب فيه قبلهم من سبقوهم من الأمم ولا يستثنى المصريون القدماء أنفسهم، ولكن النهر الخالد ظل يجرى ويجرى يؤدى علمه على طريقة النواميس الكبرى فى الكون... فى صمت.. لا يحفل بالكلام.. لا يعبأ بالتفسير... ما دام التكهن والتأويل لا يصدانه عن المسيرة أو يعوقانه عن الجريان.. وهو

أثناء هذا يطوى الأجيـال جيلا وراء جيل؛ ويبنى الحضـارات حضـارة وراء حضـارة؛ ويحيي المـوات قفرا بعد قفـر؛ ويصنع التاريخ من هجمات الطامعين فى أرضه ثم ارتدادهم مدحورين عن حوضه، وتواصل الحياة على ضفافه كما شاء له الله لا كما أراد المغيرون...

الفصل العاشر

وفاء النيل

عاش الفيضان فى ذهن الشعب المصرى ووجدانه فظل يحتفل به كل عام على مر العصور... حتى فى الفترات التى كان فيها الحاكم أجنبيا غريبا.

ففى أغسطس من كل عام ما بين أوله وآخره كنا إلى عهد قريب نحتفل بوفاء النيل.. وكان هذا الاحتفال نبضة قوية من نبضات الشعب المصرى تصله؛ وما انقطع، بالنيل وتعمق إحساسه به... فيضان النيل هذا كان بالنسبة إلى المصريين تجربة غنية.. تجربة نفسية وفنية ووطنية تشغل المهندسين الحاكمين والمحكومين والأدباء والشعراء العلماء والبسطاء، تجربة مثيرة لها تاريخ مع التاريخ المصرى منذ تطلع المصريون إلى السماء وتأملوا أفلاكها حتى هداهم طول التأمل إلى لمح نجم يظهر فى غرب السماء المصرية قبل الشروق بوقت قصير.. وقد رصدوه مرارا مع السنين فتبينوا لفرحتهم أن مشرق النجم الجديد يتفق مع ظهور الفيضان فربطوا بينهما وكان هذا النجم هو نجم الشعرى اليمانية وكان ربطهم هذا نواة عملهم فى الفلك الذى انبثق عنه التقويم المصرى الذى أعطته مصر للدنيا منذ آلاف السنين وكان عيد رأس السنة فى هذا

التقويم مقترنا بميعاد الفيضان.

وفتحت الأمة المصرية عينها على النيل فراعها منه فيض زاخر هادر جياش يحمل لها الحياة والنماء والنضرة فاتجهت إليه تتعلم منه الزراعة والصناعة بل الفن والدين والعلم والخلق.

وصلى اخناتون العظيم محدثا بنعمة النيل:

أنت الذى يعطى الحياة (أيضا) لكل البلاد الأجنبية البعيدة.

لأنك خلقت نيلا فى السماء؛

لينزل لأجلهم ويحدث أمواجا فوق الجبال،

مثل (أمواج) البحر؛

لتروى حقولهم التى فى قراهم.

ما أجمل أعمالك يا رب الأبدية؛

فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام.

أما النيل (الحقيقى) فإنه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر.

وازدهى أحد الفراعنة الإعجاب والعجب فصاح جذلان مزهوا يعلن فى كهنته حدود مصر وقد رسمها مترسما مجرى النيل (فالأرض المشمولة بفيضه هى مصر وكل إنسان يشرب منه تحت جزر الفنتين إنما هو مصرى...).

واختال آخر به قائلا فيما حكى الله عنه (أليس لى ملك مصر

وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون)،

ويعتلى الملك مرنبتاح العرش فيرى من يمن طالعه أن النيل فاض في عهده...

ويتضرع المصرى يوم الحساب فتكون وسيلته الشافعة إنه لم يقطع قناة فى ممرها، ولم يخالف نظام الرى، ولم يتلف الأراضى الزراعية....

ويعد نفسه سعيدا لأنه قاس الفيضان الذى يجعل مصر مخصبة بفضل النيل.

وفى مصر القديمة؛ عندما يفيض النيل كانت تنتظم حلقات الرقص من بناتهم وتنبعث الأنغام من القيثار رقيقة كالغناء الذى تصاحبه... الغناء الشكور المشيد... أليس رقيقا عذبا هذا النشيد (لقد غرس حب جماله فى كل جسم، قد صنع ذلك «بتاح» بيديه ليكون عطرا لقلبه فالترع ملأى بالماء من جديد والأرض قد عمرت بحبه)...

كان المصريون يسجلون فى سجلات خاصة درجات علوه وإنخفاضه واحتفالاتهم الدينية به وأناشيدهم له وبعض هذا؛ النشيد الذى أورده «ارمان» فى كتابه عن أدب مصر القديمة وأورده «ماسبرو» مع اختلاف فى كتابه عن تاريخ مصر.

ومنه:

.. إنه النيل الذى يأتى بالخيرات والغنى والطعام وخالق الطيبات.

.. شباب رعاياك وأطفالك يهللون فرحا بمقدمك والرجال يحتفون به كملك راسخ القوانين عندما يوافى الوجه القبلى والوجه البحرى ويروى الناس من مائه ويقر الحزين ويبتهج كل قلب...

.. إنه النيل الذى يغنى المرء فيحب الآخر لا يحابى ولا يعرف أحدا...

.. إنه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس... يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحا وبالصحراء التى لا تؤوى طيرا...

.. وما دام الناس لا يأكلون اللازورد الحر فالشعير أحسن...

وعندما يفيض النيل تبذل العطايا وتذبح الذبائح وتقدم القرابين...

وإذا تخلف عَمَّ البلاد كلها الفزع وغمر الأسى الكبار والصغار...

.. أما إذا أوفى فإن البلاد تضج بالفرح ويستبشر فيها كل حى ما أروعك يا نيل ما أروعك...

وهكذا يمضى النشيد هادئا دافئا ودافقا.. عميقا وبسيطا.. صادقا وحميما (لم لا يؤله من يقوت ويرزق)؟

على رأى شوقى.

وقد أشار الأستاذ سليم حسن إلى أنه (يوجد فى المتحف البريطانى النقش المعروف الذى يمثل ثلاث بنات يغنين؛ وأربع يلعبن منهن على القيثارة واثنتين أخرتين ترقصان والألفاظ التى كن يغنينها تشيد بنعمة الفيضان الجديد)

وقد ترجمت مرجريت مورى Margaret A.Morray الصلاة المرفوعة إلى أوزوريس رمز النيل الذى يأتى به من منابعه.

وكان الفيضان السنوى صورة لتجديد الحياة باستمرار فكان حورس يبارك الملك الذى يقدم له قدر ماء (إنى أتيح لك أن تجدد ميلادك كالماء ذى الحياة المتجددة).

وإذا كانت الجسور تحمى البلاد من خطر الفيضان فقد غدت صورة للحارس الحامى... فكان رمسيس الثانى يوصف بأنه جسر طيبة.

وهكذا كان النيل وفيضانه منذ القدم منبع حياة ومادة فن. حتى الرومان تغنى شاعرهم تيبولوس بفيضان النيل:

عجبا.. كيف يفيض النيل بالحياة والبركة؛ حينما تطلع الشعرى اليمانية، وسط الحر والقيظ ويتشقق الثرى، جفافا، وظمأ

خبرني أيها الأب النيل

لأى سبب، وفى أى أرض

تخفى رأسك (منابعك) حتى أعلن هذه للناس؟

أنت الذى له الفضل فى أن مصر لا تطلب المطر... والورقة الجافة لا تسجد للمشترى الجالب الغيث.

بل أنت الذى تعبد ويتغنى بجمالك؛ كما يعبد اوزوريس نفسه.

كما تغنى بالنيل شاعرهم (فرجيل) وأشار إليه فى ملحمته «الايثيادا» وحين تحدث الشاعر (لوكرتوس) عن عجائب الدنيا كما يراها هو؛ نوه بالنيل واعتبر فيضانه أحد هذه العجائب بإعتباره النهر الوحيد فى العالم الذى يفيض فى الصيف.

وقد ذكر لاروس تحت مادة نيل Nil أن فيضانات النيل أدهشت القدامى الذين حاولوا معرفة أسبابها وأصل منبعه يقول جاك ليندسى Jack Lindsay فى كتابه: (الرجال والآلهة على النيل الرومانى)، (الوديان العظيمة للأنهار تلعب دورا فى قيام المدينة فى الهند والصين تماما كمصر ولكن ليس هناك نهر كالنيل له طابع النيل فى فيضانه الصيفى وشريطه الخصب الضيق بين صحراوين. وإنه لطبيعى أن يكيف النيل حياة مصر فى صور شتى.)

وفى متحف روما تمثال للنيل وفروعه على هيئة رجل كبير

يلتف به ستة عشر ولذا يمثلوا النهر العظيم وروافده.

أما اليونان قبلهم فكان وجه العجب في النيل، من خلال مؤرخهم هيرودوت؛ أنه يجرى من الجنوب إلى الشمال وأنهار بلاده تجرى على العكس.. وهنا تحضرني الكلمة الشائقة التى قالها تحتمس البطل حين وصلت فتوحاته إلى أعلى النهرين ورأى هذه اللحظة فقال عنها فى زهو لا يخفى وكأن النيل فى تلك اللحظة يجرى من تحته (الأنهار التى تجرى فى إتجاه خاطىء)..

وجاءت المسيحية ووجدت فيها مصر منقذا من الرومان ومنفذا إلى الخلاص ولهذا كان الأدب القبطى إعجابا خالصا بالقديسين والشهداء والرسل الذين زخر الأدب القبطى بالاشادة بهم وسرد كراماتهم مطبوعة بطابع مصرى محلى، ويضفى عليهم من مصر القديمة كثيرا من الرؤى والأخيلة بل العقائد أيضا.

ومع هذا كانت الكنائس تقيم الصلاة من أجل النيل

وفى كتاب الخولاجى المقدس إنه (من ثانى عشر شهر بؤونة إلى تاسع شهر بابة).. يقول الكاهن: أوشية المياه هذه..

«تفضل يارب مياه النهر فى هذه السنة باركها».

ويقول الشماس:

«صلوا من أجل صعود المياه النهرية كمقدارها».

ومن لقاء الخميس الكبير.

يارب ارحم.

هكذا أيضا أيها المعطي الحق وعظم الغنى ومحبة البشر يا إله الرحمة افتق الأرض واروها بصعود النهر فتثمر حسنا.

وفي كتاب (دلال أسبوع الآلام) دعاء موصول من أجل النيل وأن يفرج به وجه الأرض...

وروى على باشا مبارك عن أقباط مصر أنهم كانوا يجتمعون على شاطىء النيل في اليوم الثامن من شهر بشنس (عيد الشهيد) حيث يفدون من جميع القرى ويركبون الخيول ويلعبون عليها وتنصب الخيام على شطوط النيل وفي الجزائر.

وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائما بناحية (شبرا) من ضواحي القاهرة...

واستمرت هذه العادة إلى زمن الملك الناصر محمد ابن قلاوون وقد أشار إلى هذا العيد ابن حجلة التلمساني ونوه به المقريزي واعتبره (من أنزه فرج مصر) كما نوه المقريزي بعيد الغطاس وهناك نص مسيحي يرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادي يقول إنه في ذلك الحين لم يكن إرتفاع النيل مقرونا بأوزوريس إذ ساد إعتقاد أن إرتفاعه إنما هو ببركة القديس

اوريون وهى قصة تذكرنا بقصة الشيخ على الخواص الصوفى، عند المسلمين،

والنيل خاصة فى فيضانه؛ عند المصريين بحر وفى الصعيد يقسمون به فى مقام الجد ويقولون (وحياة البح الطاهر) أى البحر الطاهر.

وقد ذكر الله لفظة (بحر) فى ثلاثة وثلاثين موضعا منها ثلاثة مواضع قصد بها النيل وهى قوله تعالى:

«نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا(١)»

«واتخذ سبيله فى البحر عجبا (٢)»

«أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر (٣)»

ويؤيد هذا التفسير ما أورده البخارى فى ذهاب موسى عليه السلام فى البحر إلى الخضر...

وقد جاء فى المقريزى فى باب «ذكر مقاييس النيل وزيادته» أن بعض المفسرين قالوا: (إن يوم الوفاء هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام بالاجتماع فى قوله تعالى: «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى (٤)»؛ ثم أردف: «وقد جرت العادة أن اجتماع الناس للتخليق يكون فى هذا

(١) سورة الكهف ١٨ : ٦١.
(٢) سورة الكهف ١٨ : ٦٣.
(٣) سورة الكهف ١٨ : ٧٩.
(٤) سورة طه ٢٠ : ٥٩.

الوقت».

وأيد هذا الرأى النويرى فى (نهاية الأرب).

ويميل إلى هذا الرأى أيضا الأستاذ عبد الوهاب النجار فى (قصص الأنبياء) فهو يرجح أن يوم الزينة هو يوم وفاء النيل (فإنه كان أعظم أعيادهم)..

وفى القرآن الكريم اقرار ضمنى بجدارة النيل بالحفاوة بل بالفخر؛ إذ أطلق عليه لفظة الجمع (الأنهار) إذ أطلق عليه اسم (البحر) وإذا ردد ذكره دون سائر الأنهار.

كما أن القرآن الكريم صور النهر مسرحا لحوادث التاريخ ورسالات الأنبياء بما رواه من أخبار موسى والخضر على صفحته أو فى واديه.

وصوره شغل المصريين الشاغل من خلال حلم العزيز وتفسير يوسف له وما ترتب على الحلم من أحداث.

كما صوره مسرحا لأعيادهم ومن أهمها «يوم الزينة» يوم وفائه.

وصورة النيل فى القرآن صورة موحية فجرت كثيرا من القصص فى الأدب الشعبى خاصة فيما يتعلق بالسحر والسحرة حتى جعل ابن النديم فى الفهرست، (مصر) بابل السحر والسحرة.

والعرب فى مصر نظروا إلى النيل نظرة غيبية ومن يقرأ كتب تاريخهم بما تضمنته من حقائق وأوهام وخيالات يدرك أنهم بلا شك لم يخضعوا النيل للدراسة العلمية المحققة ولكنهم ضربوا فى متاهات الظن حينا؛ وأنا فسروا المشاهدة تفسيرا شخصيا أيضا، وتارة تبع بعضهم بعضا فى ضروب القول، وانتهوا فى مظعم حالاتهم إلى أن الله يوحى إليه عند زيادته ونقصانه! وأن منبعه من الجنة من تحت سدرة المنتهى حتى ليقول الكندى (إن النيل أشرف أنهار الأرض).

ولا يخفى ما فى (أشرف) من دلالة، ولهذه القدسية انعكاسات فى أدبهم نثره وشعره، فهى لم تقف عند الأساطير؛ بل تجاوزتها إلى غيرها من ألوان التعبير عندهم حتى بعد الإسلام فنلمحها فى وصفهم له (بالمبارك)، بل زعموا له كرامات يرويها ويفيض ابن اياس وابن زولاق، كما يرى شعراؤهم أفراح الفيضان مما نظمه السيوطى فى نجومه الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة.

ولا أريد أن أقف عنده بالتحليل حتى لا يتشعب الموضع حين قصدت الفيضان وحده... ثم إنها على تفاوت الصور؛ لم تصور النيل على حقيقته ولم تترجم عن معناه فى الضمير المصرى... وقد استدرك هذا النثر العربى فقدم (سجلات

البشائر) بشائر النيل وبشائر الفيضان وقد كتبت هذه السجلات في جو نفسي ممتلىء بالنيل... كتبت والنفس والعقل والحواس المصرية جميعا مشغولة بالنيل بعد حساب وتقدير وشرود... بين الخوف والرجاء.

وفي هذه السجلات ارتباط بين النيل والدين في أكثر من موضع؛ فوفاؤه عيد إسلامي تماما كما كان عيدا فرعونيا ثم عيدا مسيحيا؛ وهو لما يترتب عليه من جباية الخراج أمر شرعي يشهد به رجال الدين المسلمون.. ولما كان من مبادىء الإسلام شهادة العدول في الأمور الشرعية فقد زادت مراسم الاحتفال، شهادة رجال الدين وإعلان الشعب بها...

وتتحدث سجلات البشائر عن جبر الخليج وهي التسمية الإسلامية لعيد الفيضان.

أما أسلوب هذه السجلات فحافل بالطرائف التي يشكلها ما فيه من سجع وتشبيهات وخيالات بل والألغاز أيضا ومن هذا قول القاضي زين الدين بن العجمي: (سألتك أعزك الله عن سائل لاحظ له في الصدقة يتشعب ويتكسر، وله خمسون عينا وأكثر.. يحمل القناطير المقنطرة ويعجز عن حمل إبرة.. الخ).

ولكن الحياة المصرية الإسلامية كانت أقوى اتصالا من ألوان الفن جميعا بالنيل. وإن من يقرأ (الطبقات الكبرى

للشعرانى) ليستوقفه ما جاء فى ترجمة الشيخ على الخواص الصوفى المصرى من أنه (كان يكنس المقياس كل سنة ثانى يوم نزول النقطة وينفق على أصحابه ذلك اليوم نفقة عظيمة.. يقبض من عبه الدراهم ويعطيها كل من رآه من المستحقين؛ ويزن عليهم كراء المعدية وهم نحو مائة نفس؛ ثم يفرق السكر والكعك على أهل المقياس وجيرانه.. ثم ينزل فيكشف رأسه ويتوضأ من المقياس ويصير يبكي ويتضرع ويرتعد كالقصبة فى الريح ثم يطلع يصلى ركعتين ويأمر كل واحد من أصحابه أن ينزل ثم يكنس السلم بمقشط من حديد، ويخرج الطين الذى فيه بنفسه ويأبى أن يساعده أحد فيه.. وكان يقال إن خدمة النيل كانت عليه؛ وأمر طلوع النيل ونزوله ورى البلاد وختام الزرع كل ذلك كان بتوجهه فيه إلى الله تعالى، وكان أولياء عصره تقر له بذلك).

هنا بكاء ونشيج من حب كاد يرتفع إلى مقام العبادة ... هنا رجل صوفى يرى سعادته الكبرى فى أن يكنس للنيل المقايس ويخرج الطين الذى فيه بنفسه.

هذه صورة.. لها أشباه. فإن ابن اياس عندما يسرد تاريخ مصر يتريث عند سنة ست وستين وثمانمائة ليروى من حوادث هذه السنة ما عاشت فيه مصر كلها حين توقف النيل فى هذه

السنة عن الزيادة. وكيف ضَجَّ الناس وشحت الأقوات وطارت الأسعار وأرسل السلطان العلماء إلى المقياس للصلاة والابتهال.

وفي تلك الحقبة كثرت صلوات الاستسقاء من المسلمين والمسيحيين على السواء من أجل زيادة النيل.

وقد نقش العصر الإسلامي الآيات الكريمة - آيات الماء والثمرات والخضرة والنضرة - على جدران المقياس، كما كان المصريون القدماء ينقشون رموزه على جدران معابدهم.

وكان الناس يخلق بعضهم بعضا بالزعفران.

وكانت النساء يشتركن من وراء الخدور، بالزغاريد في عيد الفيضان.

ويحكي ياقوت الرومي أنه اتفق في بعض السنين أن النيل لم يزد زيادة تامة... وصادف أن كان أحد علماء النحو وهو جنادة بن محمد بن الحسين الهروى يتخذ مجلسه عند المقياس فظن الحاكم أنه يعزم على النيل ليمنع زيادته.. وبكل تهوره وحدته أمر بقتله.

ولقي المصير نفسه للسبب نفسه الشاعر أبو جعفر النحاس.

واستبد القلق بأحد الحكام فهم بهدم المقياس حتى لا يقف الناس على حقيقة النيل من حيث الزيادة والنقصان.

وحسب المعز لدين الله لفيضان النيل حسابا كبيرا فقد نقل صاحب (تقويم النيل) عن المقريزى أن المعز سنة ٣٦٢ هـ ـ ٩٧٢ م منع من النداء بزيادة النيل وألا يكتب بذلك الا إليه وإلى القائد جوهر. فلما تم ست عشرة ذراعا أباح النداء وكسر الخليج.

وقد تبارى الحكام في الاحتفال بوفاء النيل على اختلاف جنسياتهم تجاوبا مع الشعب فى فرحة بهذا اليوم المشهود.

والمؤرخون الاسلاميون يؤرخون للنيل فى نهاية كل سنة من حيث الزيادة أو النقصان كحدث جليل من الأحداث الهامة الكبرى ولم يظفر بهذا نهر آخر غيره.

ـ عبر الأدب الشعبى عن فرحة الشعب المصرى بالفيضان مباشرا حميما وهناك أغنية تعرفها دورب القاهرة:

وحل جبر الخاطر عوف الله

وجبر الخاطر على الله عوف الله

دا شىء من السنة للسنة عوف الله

وتعيشوا إلى كل عام عوف الله

والنيل السعيد له فرحة عوف الله

وكل عام يجينا خاطر عوف الله

تخلى له الأرض ليسكن عوف الله

ومجيئه به يسر الخاطر عوف الله

إلخ هذه الأغنية الجميلة التى أعجب بها ادوار لين الذى سجل تسجيلا دقيقا عملية النداء وإعلان البشرى بزيادة النيل ورسم صورة للمنادى وصبيته.

ومضى الأدب الشعبى فى الأغنية والموال والقصة والحدوتة والمثل والفزورة يلهج بذكر النيل وقد جمع ماسبرو الكثير من مصر العليا فى كتابه كما جمع Bauriant مجموعة أخرى واليونسكو أيضا والأستاذ رشدى صالح..

وكم سمعت القاهرة فى الليالى والاسمار من شاعر الربابة قصة سيف بن ذى يزن التى نفض فيها الأديب الشعبى المجهول خوفه أو خوف مصر على النيل حتى جعل له كتابا ولكتاب النيل كرامات لها رواسب فى الأساطير المصرية القديمة والأساطير الإسلامية.

كما يرتبط الفيضان فى أذهان الشعب بقصص وحكايات عن جنيات البحر مما انعكست أصداؤه فى الأدب الشعبى بل الفصيح.

وقد أورد المغفور له أحمد تيمور فى كتاب (الأمثال العامية) الأمثلة النيلية مثل (*البحر يوفى من قيراط*)؛ (*البحر يعوز الزيادة*)؛ (يعنى هو *البحر* هيجرى مقبل)، (*الغرب ولا الشرق*).

والنيل بفيضانه كما تصوره الأمثلة النيلية يمثل عند الشعب

الروع العظيم وقد رسمت هذه الأمثلة كثيرا من معتقدات الشعب وآرائه فى الحياة والناس فى أسلوب مركّز موح سريع اللمح والخطوط فيه جد وسخرية... فيه حكمة وواقعية.. فيه أخلاق ووقائع؛ سذاجة حينا وحصافة حينا آخر وفى بعضها إدراك قد يعمق حينا حتى يصل إلى مطاوى النفوس.

إننى هنا أشير فقط وأجمل ما فصلته الدراسة فى هذه الموضوع الكبير «يقول فرناند ليبريت Fernand Leprette فى كتابه مصر أرض النيل Egypte Terre du Nil.

(إذا كان النهر المقدس قد هبط فى هذه الأيام فى نظر المصرى المحدث إلى مرتبة المظهر الطبيعى - وهو ليس من المؤكد - فإنه مازال يؤثر عليه التأثير القديم نفسه. وفى الواحة الفسيحة التى هى من صنعه يلتصق الفلاح بالأرض ولا يميل البدوى إلى الترحال والشخص القاطن يأبى الغربة.. وكل فرد بادى التفاؤل الذى تضفيه حياة أكيدة مستقرة ضد تقلبات الثروات... وعندما يعود الفيضان المحسن تبعا لنظام ثابت متوقع، وعندما يبدأ وقت الحصاد بفرح ونشوة ما أطيب أن نشرئب بوجوهنا إلى السماء لنتذوق نشوة الحياة)..

فقد غدا النيل فى العصر الحديث مادة للدرس وموضوعا للبحث العلمى تعقد له المؤتمرات وتقوم عليه الأبحاث وتصنف

من أجله الكتب. وفى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين نشطت الرحلات على النيل ونشرها أصحابها ومن أشهر هولاء لودفيج.

وإهتم الأدب، شعره ونثره بالنيل، وفيضانه على الرغم من النظرة العلمية الموضوعية إليه. والشعر الانجليزى الحديث نفسه فيه ثلاث قصائد عن النيل من طراز المقطعات القصيرة سونت Sonnet نظمها كيتس Keats وشلى Sheiiy وهنت Hunt وقد ترجم الدكتور عوض قصيدتيهما وقد تغنى شلى بالفيضان الذى (ينتشر انتشارا متساويا على أرض مصر ذات الذكريات).

والفيضان عند لى هنت له صورة أجمل وأكثر شاعرية ورفيفا حين جعل الصمت يعمق ويعمق ليهيىء الأسماع والنفوس للعظيم القادم من قلب افريقية يشق هديره الصمت والرمال...

المراجع والمصادر

١ ـ كتاب (الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى) للدكتور عبد الحميد يونس.

٢ ـ (الأدب الشعبى) للأستاذ أحمد رشدى صالح.

٣ ـ مجموعة اليونسكو.

٤ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة لعلى باشا مبارك.

٥ ـ كتاب (قطايف اللطايف) جـ ١ تأليف ر. ص.

٦ ـ المصريون المحدثون وعاداتهم ترجمة الأستاذ عدلى طاهر نور.

٧ ـ فنون الأدب الشعبى للأستاذ أحمد رشدى صالح.

٨ ـ كتاب (تراث مصر القديمة) طبع مجلة المقتطف مقال «الأدب المصرى القديم» للأستاذ جمال الدين الشيال..

٩ ـ كتاب (آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية) للأستاذ محرم كمال.

١٠ ـ كتاب (ديانة مصر القديمة) تأليف ارمان ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر والدكتور أنور شكرى.

١١ ـ سيرة (فارس اليمن) الملك سيف بن ذى يزن.

١٢ ـ معجم البلدان.

١٣ ـ كتاب (أساطير مصرية) للدكتور عبد المنعم أبو بكر.

١٤ ـ كتاب (مصر الفرعونية) للدكتور أحمد فخرى.

١٥ ـ ألف ليلة وليلة.

١٦ ـ كتاب (الأمثال العامية) للمغفور له أحمد تيمور.

١٧ ـ الأبشيهى فى المستطرف فى الأمثال العامة.

١٨ ـ خطط المقريزى.

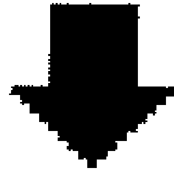
١٩ ـ كتاب (أمثال المتكلمين من عوام المصريين) تأليف محمود عمر الباجورى.

٢٠ ـ الفلاحون للأب عيروط ترجمة الدكتور غلاب.

٢١ ـ كتب (عجائب الاثار فى التراجم والأخبار) للجبرتى.

٢٢ ـ كتاب (ساعات بين الكتب) للأستاذ العقاد.

الأعـــداد القـــادمـــة



- الفولكلور فى العهد القديم ج ١

تأليف : جيمس فريزر

ترجمة : د. نبيلة ابراهيم

- الفولكلور فى العهد القديم ج ٢
- خيال الظل

د. ابراهيم حمادة

- الشعر الشعبى العربى

د. حسين نصار



مكتبة الدراسات الشعبية

من يناير ١٩٩٦ الى فبراير ١٩٩٧

١ - قصصنا الشعبى	د. فؤاد حسنين على
٢ - يا ليل يا عين	يحيى حقى
٣ - سيد درويش	محمد دواره
٤ - المجذوب	فاروق خورشيد
٥ - فن الحزن	كرم الأبنودى
٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى	د. نبيلة ابراهيم
٧ - ابداعية الأداء جـ ١	د. محمد حافظ دياب
٨ - ابداعية الأداء جـ ٢	د. محمد حافظ دياب
٩ - أدبيات الفولكلور فى موالد السيد البدوى	ابراهيم حلمى
١٠ - موال ادهم الشرقاوى	د. يسرى العزب
١١ - الرقص الشعبى فى مصر	سعد الخادم
١٢ - المغازى	د. صلاح فضل
١٣ - بين التاريخ والفولكلور	د. قاسم عبده قاسم
١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش	عرفه عبده على

مكتبة الدراسات الشعبية

من مارس ١٩٩٧ الى فبراير ١٩٩٨

١٥ – فلسفة المثل الشعبى	محمد ابراهيم أبو سنة
١٦ – الظاهر بيبرس	د. عبد الحميد يونس
١٧ – الحكاية الشعبية	د. عبد الحميد يونس
١٨ – خيال الظل	د. عبد الحميد يونس
١٩ – الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة	سعد الخادم
٢٠ – الفن الإلهى	محمد فهمى عبد اللطيف
٢١ – النيل فى الأدب الشعبى	د. نعمات أحمد فؤاد



رقم الايداع : ١٤٩٤٢/٩٧

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

النيل

النيل ليس منبعا مائيا غزيرا فقط، هو العمود الفقرى للإنسان المصرى، عبر العصور. النيل فرحة دائمة وعطاء لا ينقطع. تراث غزير وضعه المصريون حول حياة هذا البطل المعطاء، ورغم تغيرات الزمن وتقلباته لا يزال النيل بطلا حقيقيا فى الدراما الحياتية لكل مصرى.

لم تغيره التقلبات ولم تبدل من حاله الأنواء، رجل كريم حقا.

و**د. نعمات أحمد فؤاد** أرادت أن تحلل هذا الموروث من المعتقدات والأمثال والأشعار والأساطير التى عبر بها المصرى عن امتنانه للأب مانح الحياة، فكان هذا الكتاب.